الرواية الفائزة بالجائزة الدولية للكتابة الأدبية عن "الحب" 2019

رواية

آن كاترين بومان





ترجمت إلى 26 لغة

# أجاتا

ترجمة:

شيرين عبد الوهاب وأمل رواش

٦٥

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

# رياضيات

إذا تقاعدت عند سن الاثنين والسبعين فلن يتبقى لي سوى خمسة أشهر عمل فقط لا غير أي ما مجموعه 22 أسبوعًا، وإذا جاء جميع مرضاي إلى العيادة فهذا يعني أن المتبقي من الجلسات هو 800 جلسة بالضبط. أما إذا قام أحدهم بإلغاء موعده أو أصابه المرض، فسوف يصبح الرقم الإجمالي بالطبع أقل. وهذا الاحتمال جعلني أشعر بنوع من الراحة، بالرغم من كل شيء.



# النافذة الزجاجية

كنت أجلس في غرفة المعيشة وأطل من النافذة عندما حدث التالي: سقطت شمس الربيع على سجادتي فشكلت أشعتها أربعة مربعات متداخلة، تتحرك فوق قدمي ببطء ولكن بثبات. وبجواري كانت هناك طبعة أولى مغلقة من رواية «الغثيان» التي كنت أحاول قراءتها منذ بضع سنوات ولم أفلح. كانت ساقا الصبية رفيعتين وشاحبتين، وكنت مندهشًا لأنهم سمحوا لها بارتداء فستان في هذا الوقت المبكر من العام. كانت قد رسمت ملعب حَجْلة على قارعة الطريق وكانت تقفز بتركيز عميق على ساق واحدة ثم على الساقين، قبل أن تعيد الكرَّة مرة أخرى. وقد انسدل شعرها على جانبي رأسها عل شكل ذيلي حصان، ربما كانت في السابعة أو نحو ذلك، وتعيش مع والدتها وأختها الكبرى بالمنزل رقم 4 الكائن في نهاية الطريق.

إذا ظن المرء أنني نوع من الفلاسفة الذين يجلسون عند النافذة طوال اليوم يتأملون أشياء أهم بكثير من الحَجْلة ودوران الشمس حول الأرض، فالأمر لم يكن كذلك. إنما حقيقة الأمر أنني كنت جالسًا هناك لأنه لم يكن لدي شيء أفضل أقوم به. ولعلي كنت أجد شيئًا يؤكد الحياة في هتافات الإعجاب المبتهجة بالنصر التي كانت تتدفق داخلي وأنا أشاهد الفتاة تنفذ مجموعة مؤتلفة من القفزات لا سيما المعقدة منها.

وفي مرحلة ما من اللعبة ذهبت لعمل كوب من الشاي. وعندما عدت إلى مكاني كانت قد غادرت المكان. وفكرت في أنها على الأرجح قد ذهبت إلى مكان آخر لتنضم إلى لعبة بها مزيد من التسلية. وها هو الطباشير والحجر قد تُرك على قارعة الشارع.

في هذه اللحظة جرى ما جرى. فبمجرد أن قمت بتثبيت الكوب على حافة النافذة كي يبرد وفرَدت دِثار على ركبتي حتى لاحظت شيئًا بالخارج يسقط في مجال رؤيتي. فما إن تنامى إلى أذني صرخة حادة حتى أخذت أقنع جسدي المتيبس أن يقف على قدميه. فلما تقدمت من النافذة رأيتها قد استلقت هناك على الطريق عند الممشى المؤدي إلى البحيرة إلى اليمين مني، تحت سفح شجرة رأيت على أحد أغصانها قطة تهز ذيلها. وأسفل الشجرة، اعتدلت الفتاة واتخذت وضع الجلوس ثم أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة وهي تمسك بكاحلها وتنتحب.

سحبت رأسي للخلف. هل ينبغي أن أذهب إليها؟ لم أتحدث إلى أي طفل منذ أن كنت طفلًا، وهذا بالكاد يدخل في الحسابات. ألن يزيد غضبها أن يظهر رجل غريب فجأة ويقترب منها ويحاول أن يطيب خاطرها؟ ومرة أخرى اختلست نظرة إلى الخارج. كانت لا تزال جالسة على العشب وقد رفعت وجهها الملطخ بالدموع وأخذت تحدق في نهاية الطريق، متجاوزة منزلي. وأفضل شيء أن ما من

أحد رآني وإلا كانوا سيقولون بعضهم لبعض: أليس هذا هو الطبيب؟ لماذا يقف ويحدق هكذا؟ لذلك أخذت فنجان الشاي وذهبت إلى المطبخ، وجلست إلى الطاولة. وعلى الرغم من أنني قلت لنفسي إن الفتاة سرعان ما ستنهض وسوف تمشي إلى منزلها وهي تعرج وإن كل شيء سوف يسير على ما يرام فقد بقيت جالسًا هناك في مطبخي مثل الهارب بينما أخذت الساعات تمر بي. بات الشاي باردًا وغائمًا، وهبط الظلام قبل أن أتسلل أخيرًا إلى غرفة المعيشة، وأخفيت نصفي خلف الستار، وأخذت أحدق في اتجاهات شتى من الطريق. وعندئذ وجدتها بالطبع قد اختفت.

# الأثر

منذ أن وظفت السيدة «سورجو» عندي كانت تستقبلني محيية بنفس الطريقة كل صباح. ويومًا بعد يوم كانت تجلس إلى مكتب كبير من خشب الماهوجني مثل ملكة متوجة على عرشها. وكلما دخلت من الباب كانت تنهض لتأخذ عصاي ومعطفي بينما أقوم أنا بوضع قبعتي على الرف فوق مشجب المعطف. وأثناء ذلك، كانت تقرأ عليَّ جدول مواعيد اليوم. وفي النهاية تناولني حزمة من ملفات الحالات المرضية التي صنفتها في أرشيف بدقة متناهية فوق عدد كبير من الأرفف خلف المكتب. وبعد أن نتبادل بضع كلمات أخرى، وحسب القاعدة، لا أراها مرة أخرى قبل الساعة 12.45 ظهرًا وهي الساعة التي أغادر فيها المكتب وأذهب لتناول الغداء في مطعم متواضع.

وعندما أعود كنت أجدها دائمًا جالسة حيث تركتها بالضبط. وأحيانًا أتساءل عما إذا كانت قد تناولت أي طعام على الإطلاق. لم يكن هناك أي رائحة للطعام، ولم يحدث قط أن رأيت كثيرًا من الفُتَات تحت مكتبها. ألم تحتَج السيدة «سورجو» حتى إلى تناول لقمة كي تعيش؟ وفي ذلك الصباح أخبرتني أن امرأة ألمانية اتصلت هاتفيًا وتريد أن تأتي في وقت لاحق لتحديد موعد.

قالت: "لقد تحدثت مع د. « إم. دورند » عنها. ويبدو

أنها دخلت مستشفى القديس «إستافان» قبل بضع سنوات لأنها كانت تعاني من هوس شديد وحاولت الانتحار مرة".

قلت بحزم: "لا. لا يمكننا قبولها. سوف يستغرق علاجها سنوات".

قالت: "يعتقد د. «إم. دورند» أيضًا أنه ينبغي إدخالها المستشفى مجددًا، ولكن يبدو أنها تصر على استشارتك، يا دكتور. يمكنني إيجاد موعد لها بسهولة في جدول المواعيد؟".

نظرت السيدة «سورجو» في وجهي بسذاجة لكني هززت رأسي بالنفي وقلت: "لا، لا يمكن القيام بذلك. يرجى توجيهها إلى مكان آخر لطلب المساعدة".

وبحلول سن التقاعد، سأكون قد مارست الطب لما يقرب من خمسين عامًا، وكان ذلك أكثر من كافٍ. آخر شيء كان ينقصني هو مريض جديد.

رمتني السيدة «سورجو» بنظرة للحظة طال أمدها قليلًا إلا أنها استمرت بعد ذلك في متابعة اليوم دون أن تتطرق إلى الموضوع.

فقلت: "شكرًا لكِ، ممتاز".

وحملت حزمة الملفات وتوجهت إلى مكتبي الذي كان يقع على الطرف المقابل للأرض الخاضعة لسلطة السيدة

«سورجو» ألا وهي منطقة الاستقبال الكبيرة حيث ينتظر المرضى أدوارهم، لذا لم يكن صوت الآلة الكاتبة الخاصة بسكرتيرتي ولا صوت أي محادثة بينها وبين المرضى يزعجانني وأنا أمارس عملي.

كان مريضي الأول امرأة تُدعى السيدة «جانسبورج»، المملة للغاية، وقد وصلت للتو وظلت تتصفح إحدى المجلات التي كانت السيدة «سورجو» تحضرها للمكتب من حين لآخر. تنهدت بقليل من العمق وذكرت نفسي أنه بعد الانتهاء من الحديث معها لن يتبقى لي سوى سبعمئة وثلاث وخمسين جلسة ثم أغادر.

مر اليوم مرورًا عشوائيًّا حتى عدت إلى المكتب بعد الغداء وعند دخولي كدت أصطدم بامرأة شاحبة شحوب الموتى شعرها داكن تقف عند المدخل بالضبط. اعتذرت لها عن حماقتي. كانت المرأة نحيفة بشكل لافت، وتتسع عيناها في وجهها البارز.

قالت وهي تخطو داخل الغرفة: "لا بأس، إنه أنا من عرقل الطريق. فقد جئت لطلب موعد".

تحدثت بلُكْنَة واضحة فأدركت أنها لا بدَّ أن تكون المرأة الألمانية. كانت تحكم قبضتها على خريطة عليها شارة القديس «إستافان» وتضمها إلى صدرها.

أجبت: "أخشى أن ذلك لن يكون ممكنًا".

إلا أن المرأة خطت خطوة سريعة نحوي وقالت بجدية: "من الضروري جدًّا تحديد موعد لي. من المؤسف أنني أسبب لك إزعاجًا، ولكن ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. ليتك تستطيع مساعدتي، أرجوك".

تراجعت إلى الخلف بشكل تلقائي. أشرقت عيناها البنيتان ببريق وكأنها مصابة بحمى وكانت نظرتها نافذة لدرجة أنني شعرت وكأنها تمسك بي. ومن الواضح أن التخلص منها سوف يستلزم أن أخوض معركة، ولم أكن أملك لا الوقت ولا الطاقة. ومررت إيماءة إلى السيدة «سورجو» محاولًا أن أجبر نفسي على أن أبتسم ابتسامة ودودة.

وقلت وأنا أدور حول المرأة: "إذا تكرمت السيدة وتبعتني فإن سكرتيرتي سوف تتمكن من شرح الظروف لكِ بمزيد من التفصيل".

كان خطأ السيدة « سورجو» الأول هو أن المرأة جاءت بالفعل وباتت أمرًا واقعًا، لذا كان الشيء الوحيد المناسب هو أن تُصْرِفها مرة أخرى.

تجاوزت المرأة التي تكرمت وتبعتني إلى المكتب حيث أوقفتها أمام السيدة «سورجو» التي نظرت إليها نظرة بليغة.

رفعت سكرتيرتي حاجبها الأيسر بضعة مليمترات.

قلت: "هلا تكرمتِ يا سيدة «سورجو» وتوليتِ الأمر؟".

هكذا تساءلت قبل أن أومئ بقوة ثم غادرت وأسرعت بالدخول إلى مكتبي حتى أكون بملاذ آمن.

لكن صورة المرأة الشاحبة لم تذهب عني، وظل أثر عطرها باقيًا بقية اليوم كما لو كان عالقًا في الأثير ومن ثم أخذ يدور مثل الغبار في كل مرة أفتح فيها بابي.

# ضجيج

مر عليَّ الوقت كالماء الذي يمر عبر مرشح صدئ لم يحاول أحد أن يزعج نفسه ويقوم بتغييره. في ذلك اليوم تحدثت إلى سبعة مرضى بأقل قدر من التركيز. ولم يتبقَّ لي في تلك الظهيرة الثقيلة الممطرة سوى مريض واحد فقط وبعدها سيكون بوسعي العودة إلى المنزل.

قبل أن أرافق السيدة «ألميدا» إلى مكتبي رميت سكرتيرتي بنظرة. كانت تجلس بهدوء شديد إلى المكتب المرتب وهي تحدق في سطحه. وألقى مصباح الزاوية بظلال جامدة على الحائط إلى الخلف منه. وبدت السيدة «ألميدا» محبطة للغاية لدرجة أنني فكرت للحظة ما إذا كان يجب أن أقول لها شيئًا أم لا. ولكن ماذا؟ وبدلًا من ذلك جذبت الباب وأغلقته خلفي واستدرت نحو مريضتي.

أما السيدة «ألميدا» التي كانت أطول مني بمقدار رأس تقريبًا، وهو ما كان دائمًا يُشكل لدي انطباعًا ما، فقد تخلصت من مظلتها ومعطف المطر بحركة محمومة ثم أسقطت نفسها بقوة على أريكة المرضى وأخذت تُملِّس على حاشية تنورتها ورمقتني بنظرة تأنيب عبر نظارتها الصغيرة المثبتة على طرف أنفها المعقوف.

صرخت: "لقد مررت بأسبوع مروع، يا دكتور".

استلقت على أريكة المرضى.

ثم تابعت: "أنا أستفز نفسي كثيرًا. إنها أعصابي. يمكنني أن أؤكد لك ذلك. إنني قلت الشيء نفسه لـ«برنارد» - قلت له، أنت يا «برنارد» تثير أعصابي بجلوسك طوال اليوم هناك على كرسيك بمثل هذه البساطة!".

كانت السيدة «ألميدا» متوترة على الدوام. وبالنسبة لها لم تكن هناك أيام حلوة. يبدو أن العلاج لم يُفدها بأي شيء على الإطلاق، لكنها ما زالت تأتي مرتين كل أسبوع سيرًا على الأقدام وبثقة تامة كي توبخني. والفكرة المحضة عن الحياة الأفضل بدت أنها تزعجها، وبصراحة وجدت صعوبة مطلقة في فهم سبب مجيئها. وعادة كنت أتركها تتحدث إلا أنني أقوم أحيانًا بإقحام ملاحظة أو أخاطر بطرح تفسير فتتجاهل الاثنين تمامًا.

"... . وقالت إنني مدين لها بثلاثة فرنكات من الأسبوع الماضي- ثلاثة فرنكات، هل تصل البجاحة لهذا الحد! لقد شعرت بألم مبرح في صدري وكنت سأصاب بأزمة وأنا في وسط المحل. ولكن بعد ذلك قلت لها أيضًا...".

ساعدني التدريب لسنوات عديدة على أن أتمتم في المواقف المناسبة دون الاستماع فعليًا لما يُقال، ولو كنت محظوظًا لما قمت بتسجيل كلمة واحدة وهي تغادر الغرفة مرة أخرى.

وبالنظر إلى مفكرتي، أدركت أنني سئمت سن القلم الرصاص الذي يكتب عبر الورقة بإحباط مطبق، وبدلًا من ذلك بدأت في رسم طيور في واحدة من رسومي الكاريكاتورية.

قالت «ألميدا» وهي تكاد تصرخ: "ربما أعاني من حساسية مفرطة في الأعصاب، لكنني لن أتحمل الوقاحة، بوسعي أن أحدثك بالكثير عنها!".

كان المطر ينهمر بغزارة في الخارج، وكان من المستحيل رؤية أي شيء سوى ملامح ضبابية عبر النوافذ. ولسوء الحظ يبدو أن القطرات التي تضرب ألواح النافذة الزجاجية كانت تحث مريضتي على التحدث بصوت أعلى من المعتاد.

ولكن من الواضح أنني يجب أن أتحمل التَفاهات. أذعنت لهذا التفكير وركزت بعيني على بقعة في قمة رأسها الذي بدا رقيقًا بشكل مريب. لقد أسعدني أن أفكر في أنها أوشكت أن تكون صلعاء، وفي هذه الحالة سأكون على علم بذلك قبل أن يحدث بوقت طويل، وأضفت تلك التفاصيل إلى رسوماتي على الفور. وتخيلت كيف سترى نفسها من الخلف ذات يوم وهي تقف بين المرآة ولوح النافذة الزجاجي وتخربش نفسها بأصابعها السمينة بشكل محموم، وتدفع الشعر جانبًا وتكشف عن فروة الرأس وهي تصرخ قائلة: "«برنارد»! لماذا لا تقل شيئًا يا «برنارد»؟".

وهكذا، وبهذه الطريقة أو بأخرى، مرت ساعة أخرى من حياتي. وشكرتني السيدة «ألميدا» على هذه الاستشارة وبينما كنت أمسك بالباب كي تمر، دوَّرت المُفكِّرة بعناية بعيدًا عنها حتى لا تتمكن من رؤية النعامة الصلعاء التي رسمتها.

وبعدها أصبح حاصل جمع المتبقي من الجلسات ستمئة وثماني وثمانين. عندئذ فقط بدا لي أن ستمئة وثماني وثمانين عدد هائل.

# الالتزام بالتعليمات

وبعد ذلك ببضعة أيام كان عليّ أن أقاطع السيدة «سورجو» ذات صباح وهي تمضي في قراءة جدول مواعيدي قائلًا: "انتظري، ماذا تقولين؟ هل حصلت المرأة الألمانية على موعد رغم ما قلته لك؟".

أحنت رأسها وأومأت إيماءة واحدة قاطعة ثم قالت: "نعم، لقد كانت مثابرة للغاية، ينبغي أن أقول ذلك. إنها مصرة على بدء العلاج، ومن الواضح أنها سمعت أشياء طيبة عنك، يا دكتور".

قلت متجهمًا: "متى كان هذا سببًا كافيًا لمخالفة تعليماتي؟".

قالت: "لقد شرحت لها أنه لم يتبقَّ لكَ هنا سوى ستة أشهر. ومع ذلك قبلت السيدة ذلك دون أي تحفظ، وأظن أنه سيكون من السخف أن تقول لا "

لقد كانت على حق. إذا كانت المرأة الألمانية راضية بستة أشهر فقط، فليس هناك شيء غير أخلاقي في تولي حالتها، وسأكون سعيدًا بالمال الإضافي الذي ستدفعه. ومع ذلك لم أستطع التخلص من توتري. كيف تجرأت السيدة «سورجو» على إقحام شخص آخر في حياتي -ضد رغباتي المعلنة- هل أحاول إعادة ترتيب الأمور؟

ورغم ذلك تم تحديد موعد للمرأة، التي يبدو أن اسمها «أجاتا زميرمان»، في اليوم التالي في الساعة الثالثة مساء، ولم يكن هناك الكثير لأفعله حيال ذلك.

بمجرد أن غادر آخر مريض لهذا اليوم، خرجت من مكتبي لأجد السيدة «سورجو» تحزم أغراضها. نظرت إليَّ وكأنها تبحث عن شيء ثم سألتني عما إذا كان يومي شاقًّا. هززت كتفي ونوهت إلى أنه مثل الأيام الأخرى الكثيرة التي سبقته. كنت لا أزال غاضبًا منها لكني انتظرت حتى جمعت متعلقاتها وارتدت سترتها وأمسكت بالباب كي تمر.

قالت وهي تمر من الباب لتمشي تحت رذاذ المطر الذي يمكن إدراكه بالكاد: "شكرًا لك".

أومأت وأغلقت الباب خلفنا.

ثم قلت: "شكرًا لكِ. طاب مساؤك".

قالت: "طاب مساؤك يا دكتور. أراك غدًا".

في طريق عودتي إلى المنزل كانت ساقي تشدني في اتجاهين مختلفين. واحدة منهما أرادت، أو هكذا تخيلت، أن تحملني إلى المنزل فَحسْب حيث يمكنني أن آكل بعض الخبز وأجلس على مقعد مريح وأضع ساقي على كرسي القدمين بينما أستمع إلى موسيقى «باخ» وأدع الليل يأتي. أما ساقي الأخرى فلم تَسْكن. وهو ما كان يذكرني بآلام النمو التي عانيت منها وأنا طفل. لقد كانت ركبتاي تؤلماني

بشدة حتى إنني كنت أبكي بحرقة. أما والدي فكان نادرًا ما يرفع عينيه عن اللوحة التي كان يعمل عليها وهو يقول: "أنت تكبر فَحسْب. سوف تمر".

ربما شعرت ساقي باشتياق إلى الخروج لأنها لم تذهب لأبعد من باريس ناهيك أنها لم تعبر حدود البلد. والآن تأكدت بعدما هرمت أن هذا لن يحدث أبدًا، فها هو الألم دائم ومستمر.

على أي حال، كنت أنا من حدد مساري وقمت بتوجيه خطواتي المتعثرة عبر برودة المساء حتى وصلت إلى بوابة الحديقة في 9 شارع "روسات". كانت رائحة التربة التي حُرثت مؤخرًا تفوح بإصرار في الشارع؛ وقد وضع العديد من جيراني أحواض زهور وقضوا ساعات في إزالة الأعشاب وزراعة البذور. وفي هذه الأثناء، كنت أعتني بجزر الطحالب العنيدة التي نمت مثل مُويْجَات متتابعة في بحر العشب.

بمجرد أن تناولت طعامي حتى سمعت صوت قوس الكمان الناعم يسري في المساحة المحيطة بي مثل حشوة قطن، وهاجمني قطار الأفكار من مكمن وأخذ تطفله يزداد. وبالرغم من أنني أدركت ذلك، وبالرغم من أنني عرفت مدى التعاسة التي سوف يسببها لي، فقد تركته يأتي. وكان هذا ما أردته بصورة ما، أن أجلس وحدي وأرثي لحالي. لماذا كانت هذه الحالة تبدأ دائمًا بنفس الطريقة؟؟ فلا أحد

يخبرك بما يحدث للجسم مع تقدمه في العمر: التهاب المفاصل، ترهل الجلد، تعذر الرؤية.

إنها الشيخوخة، هكذا فكرت والمرارة تتدفق بين جوانحي. فهي ترتبط في الأساس بملاحظة الاختلافات بين الذات والجسد الذي يكبر ويكبر فيستيقظ المرء في نهاية الأمر ليجد نفسه غريبًا تمامًا عن نفسه. ما الجميل أو الطبيعي في ذلك؟

وبمجرد أن عبر شريط الذكريات وتركني الصمت وحيدًا في الغرفة الأمامية، جاءت الضربة القاصمة: لم يكن هناك مخرج. اضطررت للعيش في هذا السجن الرمادي الغادر حتى قتلني.

القديس إستافان

مونتباليار، 21 يونيو 1935

**بشأن: «أجاتا زميرمان»**

---

مريضة غير تواصلية إلى حد كبير وبدا ذلك منذ أن دخلت هذا الصباح، معظم ما يلي مستخلص من سجلاتها الطبية القديمة.

**تاريخ الحالة:**

امرأة ألمانية تبلغ من العمر 25 عامًا، هاجرت إلى فرنسا

عام 1929 من أجل الدراسة. بدا عليها سلوك الإيذاء الذاتي وحاولت الانتحار في سن 15 عامًا وكانت تُعرض بانتظام على الطبيب المحلي الدكتور«فاينريش» وطوال فترة المراهقة.

المريضة من عائلة ثرية وتعيش مع أم وأب وأخت أصغر منها بعامين. لا يوجد تاريخ عائلي للمرض النفسي باستثناء عمة من ناحية الأب. وقد أمضت معظم فترة البلوغ في مستشفى للأمراض العقلية في «فيينا». الأب أعمى ولكنه يعمل عملًا حرًا، والأم ربة بيت.

**الوضع الراهن:**

دخلت المريضة المستشفى بعد أن ذهبت إلى طبيبها الخاص تشكو إليه من حزن عميق وأفكار انتحارية رغم أنها كانت تعارض دخول المستشفى. وكانت تسلك سلوكًا هستيريًا ومأساويًا. تم استخدام القيود معها. المريضة شاحبة، تعاني من سوء تغذية، وهناك خدوش في وجهها. وتعاني أيضًا من تساقط الشعر.

المريضة قادرة على التواصل وتصرخ وتبكي عندما تُترك بمفردها.

**الحساسية:** لا يوجد.

**الخطة الآجلة:**

يجب وضع الذهان في الاعتبار، وسوف توضع المريضة تحت الملاحظة على مدار عدة أيام قادمة. يتم إعطاؤها المنوم حسب الحاجة وكلورال هيدرات 20 مجم. مساءً.

**الاستشاري «إم. دورند»**

# جلسة «أجاتا» الأولى

قلت: "ها نحن نلتقي مرة أخرى. تفضلي، يا سيدة «زميرمان»".

قمت بمصافحتها وضغطت على يدها شديدة البرودة. كانت ترتدي تنورة بنية وبلوزة سوداء لا شكل لها مع رقبة ملفوفة تبدو أكبر من جسمها الطويل النحيل الملفوف ببضعة مقاسات مقارنة. وقد تلاشت من عينيها نظرة أول أمس الانفعالية الحادة. وحتى الآن كان من الصعب فهم كيف استطاعت أن تهزم كلًّا من الدكتور «إم. دورند» والسيدة «سورجو». إنني لم أستطع أن أتخلص منها في نهاية المطاف.

قلت: "تفضلي بالجلوس، يا سيدتي. استريحي".

أشرت إلى أريكة المرضى الخضراء وجلست أنا على مقعد بذراعين مصنوع من الجلد البني الغامق، وكان قد بُلي حتى إنه بدا لامعًا جدًّا واستحال لون بعض أجزائه إلى اللون الأسود تقريبًا.

قالت: "شكرًا لك، ولكن أوَّلًا وقبل كل شيء يجب أن تعدني بالتوقف عن مناداتي بالسيدة «أجاتا زميرمان». سأكون ممتنة لو ناديني بـ«أجاتا»".

لم يكن من عادتي أن أنادي المرضى المتزوجين بأسمائهم

الأولى ولكن لن يضير أن أسايرها.

فقلت: "كما تشائين".

ابتسمتْ لبرهة وألقت نظرة على الغرفة. وبخلاف المقعد ذي الذراعين وأريكة المرضى كان بالغرفة مكتب وكرسي بالإضافة إلى خزانتي كتب طويلتين مليئتين بكتب قمت بجمعها وقراءتها بشغف شديد.

ثم جلستْ بحذر، واستدارتْ، وأخيرًا استلقتْ على ظهرها.

قلت: "حَسَنًا. أود في الواقع أن أبدأ بتكرار اقتراحي بأن تطلبي المساعدة في مكان آخر".

هكذا بدأت حديثي.

وتابعت قائلًا: "كما تعلمين، سوف أتقاعد خلال أقل من ستة أشهر، وبصراحة، من غير المحتمل أن أتمكن من شفائك في هذا الوقت القصير جدًّا. يستحسن أن تجدي شخصًا يمكنه رؤيتك طوال فترة العلاج، ربما طبيبًا في «باريس»".

أطلقت «أجاتا» صرخة عمودية كالرصاصة وهتفت: "محال! لن أذهب إلى المستشفى ولن أتعاطى أي دواء؛ أحتاج إلى شخص ما كي أتحدث معه وقررت أن تكون أنت هذا الشخص".

برز ذقنها وحدقت مباشرة في عيني وقالت: "سوف تضطر

إلى جري من شعري إذا أردت التخلص مني".

فتنهدتُ وأومأتُ.

قلت: "إذا كان هذا ما تريدينه حقًّا".

قالت" " أريده!".

قلت: "ممتاز. إذا ثبت أن هذا ضروري، فسوف أرشح أحد زملائي بمجرد أن ينتهي وقتنا معًا".

هزت كتفيها متجاهلة ما قلته وكأنه لا صلة له بالأمر بتاتًا. واستلقت على ظهرها مرة أخرى ثم مسحت أنفها بحركة سريعة وتمددت دون حراك.

فقلت: "في هذه الحالة، أقترح أن نتقابل مرتين أسبوعيًّا، الثلاثاء الساعة 3 مساءً. والجمعة الساعة 4 مساءً، الجلسة ساعة واحدة فقط. أجري هو 30 فرنكًا في الساعة. وإذا منعك أي مانع من المجيء فنحن نرحب بالإلغاء، لكنني سأرسل لكِ فاتورة عن كل ساعة من ساعات العلاج حتى اليوم الذي تختارين فيه عدم العودة".

أومأت. ومرة أخرى لاحظت رائحة عطرها. إنها تلك التوليفة من البهارات التي تنفذ إلى أنفي من وقت إلى آخر. فبماذا تذكرني يا ترى؟

قلت: "حَسَنًا. يجب أن تثقي بي وتقولي لي كل ما تشعرين به. التكتم والأكاذيب يؤخران تقدم العلاج، ولن

يخرج ما تقولينه من هذه الغرفة".

وكما هي الحال دائمًا، اختتمت حديثي المقتضب بجملة تهدف إلى حث المريض على الكلام فقلت: "والآن أود أن أسمع المزيد عما يزعجك".

ترددت«أجاتا»، وأغمضت عينيها نصف إغماضة.

قالت بلهجة واضحة: "إنني جئت...".

كانت تنطق الأحرف بوضوح تام.

قالت: "لأنني فقدت الرغبة في العيش مرة أخرى. ولا أضمر أوهامًا عن احتمالية حدوث أي تحسن، لكنني أود أن أكون قادرة على العمل".

وبدا جليًا أنني كنت أتعامل مع حالات هي الأندر من نوعها؛ أشخاص لم يطلبوا المعجزات بل الغالبية العظمى من مرضاي أرادوا أن يعيشوا حياة سعيدة خالية من الإشكاليات وهي بضاعة لم أكن أتاجر فيها.

سألت: "وماذا يمنعك من العيش؟".

بدأت «أجاتا» في شرح الأعراض التي تنتابها. فقد كانت تعاني من الصداع والإكزيما كما كانت تبكي في كثير من الأحيان، وتنتابها نوبات غضب مفاجئة وعنيفة وتنام إما نومًا مفرطًا أو لا تنام على الإطلاق، ولم تعد قادرة على التعامل مع عملها كمحاسبة في المدينة. وفي النهاية

عجزت عن التغلب على الأمر. وبعد أن هاجمها المرض قبل بضعة أسابيع، أمضت معظم أيامها إما في البكاء أو الصراخ في وجه زوجها «جوليان» أو في الاستلقاء في الفراش في وضع الجنين. لقد استمعت إلى شكواها وأنا شارد الفكر لأني كنت أحاول أن أعرف ماذا كانت تلك الرائحة التي تفوح منها.

قالت بشكل حالم: "أحيانًا أستغرق في تخيل أنني أقوم بخربشة نفسي حتى تسيل دمائي أو أقوم بتشويه وجهي حتى لا يعرفني أحد".

كان التقارب بين كلماتها الحادة وافتقارها التام إلى تعبيرات الوجه شيئًا مدهشًا.

قلت: "حقًّا؟".

قالت: "عندي دافع يجعلني أريد أن أطمس ملامح وجهي. فأنا لا أستحقه".

سألتها: "هل تتمنين لو كان لديك وجه آخر بدلًا منه؟".

لكنها هزت رأسها بالنفي.

قالت: "لا. أنا سأنقرض فَحسْب".

قمت بكتابة ملاحظة موجزة في مفكرتي وتنهدت مرة أخرى. إن الحالة كما توقعت: كانت في ذروة مرضها، وتعد مساعدتها في الأشهر القليلة المتبقية لي دربًا من

المستحيل.

ولعنت سكرتيرتي العنيدة. فبسببها صبرت على امرأة متعننتة مضطربة عقليًّا قد نفذ إلى رأسها فكرة أنني أستطيع إنقاذها من نفسها.

قلت: "إنني أتفهم، وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك يا سيدتي. دعينا نتوقف هنا اليوم، وسنلتقي مرة أخرى يوم الجمعة الساعة 4 مسًاء".

قالت «أجاتا »: "شكرًا لك يا دكتور".

ثم قالت بجدية عندما تصافحنا وهي تغادر: "ما قلته يعني لي الكثير".

**القديس إستافان**

مونتباليار، 21 يونيو 1935

**بشأن: «أجاتا زميرمان»**

---

تم منع المريضة اليوم الساعة 8.12 صباحًا من الانتحار باستخدام شفرة الحلاقة.

غير معروف كيف حصلت عليها. تمكنت من قطع شريان الرسغ قبل أن تعثر عليها الممرضة السيدة «لينا» واحتاجت إلى 8 غرز قُطِّبت بخيوط من حرير وسوف تُنزع في غضون

10 - 14 يومًا.

المريضة مقيدة حاليًا وستظل كذلك حتى تسترد هدوءها مرة أخرى.

تم تجريب العلاج بالمنوم أوَّلًا وبعد ذلك العلاج بالصدمات الكهربائية وذلك منذ دخولها في 21 يونيو. أصبحت نوبات البكاء أقل، ولكنها تبدو فاترة المشاعر وغامضة عند التواصل مع الآخرين إلى حد كبير، بصرف النظر عن نوبات الهستيريا المتفرقة التي تنتابها. ليس هناك أي أعراض ذهانية واضحة، وبدلًا من ذلك تشير ملاحظة المريضة إلى الاكتئاب الهوسي.

**الخطة الآجلة:**

مواصلة العلاج بالصدمات الكهربائية وتعاطي المنوم ليلًا وأثناء النوبات. لا رحلات ولا زيارات. ويجب أن تظل مقيدة ولا تُحرر من قيودها إلا أثناء وجبات الطعام على أن توضع تحت المراقبة. إذا استمر فقدان الشهية لدى المريضة، يُسمح بالتغذية القسرية.

**الاستشاري «إم. دورند»**

# مَعْزُوفَة جاري

كان جاري يعزف البيانو. ليس في كثير من الأحيان إلا أنه كان يعزف دائمًا نفس المقطوعة الموسيقية الخرقاء، كما لو كان لا يستطيع العزف حقًّا إنما يعرف لحنًا واحدًا ويحفظه عن ظهر قلب. لم أكن أعرف اسمه، ولكن مع الوقت أصبحت مغرمًا به، وأحيانًا كنت أجد نفسي أدندن لحنه أثناء تنظيفي المائدة بعد تناول الطعام وأثناء غلي الماء اللازم لعمل الشاي.

بعد قضاء يوم طويل وعقيم بامتياز في العيادة، استغرقت في النوم مبكرًا على مقعدي، يهدهدني رنين تكات الساعة البطيء على الجانب الآخر من الجدار، وهو نوع من الجدران الذي يعزز التقارب حتى وهو يقوم بالفصل. لأننا نعرف بعضنا بعضًا، هو وأنا. لقد عشنا جنبًا إلى جنب سنوات عديدة لدرجة أن كل الضجيج البسيط كان يُعد نوعًا من الروتين الذي يمكننا متابعته دونما إعادة التفكير. لقد حان وقت آخر زيارة ليلية إلزامية إلى الحَمّام ثم حان وقت الاستيقاظ والاستعداد للذهاب إلى كنيسة.

وفي بداية عزفه كان في حالة معنوية عالية ثم بدا حزينًا وخاويًا. تخيلت أنني أستطيع سماع كل ذلك من طريقة تحريك أصابعه عبر مفاتيح البيانو ومن الثغرات الكائنة بين كل علامة فارقة من علامات الحياة. ذات مرة مضت عطلة

نهاية أسبوع بأكملها دون أن أسمع أي صوت يصدر من هناك. وأخذ قلقي عليه يزداد شيئًا فشيئًا. وأكثر ما خشيت بالطبع هو أنني قد أضطر قريبًا إلى الذهاب إليه وطرق بابه، ومن ثم شعرت براحة كبيرة عندما سمعت أخيرًا بابًا يُغلق ببيته وأدركت أنه لا يزال على قيد الحياة.

كنت أشك في أنني سأتعرف عليه إذا التقيت به في الشارع. فأنا في الغالب أمشي مستغرقًا في أفكاري الخاصة. وحتى لو حاولت أن أنتبه، لما أمكنني التعرف على من كنت أبحث عنه. هل كان طويلًا أم قصيرًا؟ هل له شعر؟ لم أكن أمتلك مفتاحًا للغز. لكن إيقاعاته وتواتراته اليومية، وهيامه على وجه الحياة، هو ما كنت أعرفه وأتعرف عليه. شعرت بعلاقة وثيقة تربطني به، على الرغم من أنني لم أكن على يقين من أنه يحمل نفس شعوري. وكلما أسقطت قدحًا على أرضية المطبخ المكسوة بالبلاط أو كلما غالبت في ما ندر التغني بأغنية، كنت أفكر فيه. ربما كان يقف على الجانب الآخر من الجدار، ورأسه يتمايل يَمْنَة ويَسْرة، وينصت. ربما يأتي يوم يدق فيه بابي ويخبرني من كنت.

حَسَنًا، هذه هي الطريقة التي فكرت بها. ليس لدي شك في أن هذا يبدو غريبًا -لأني علي يقين من أنني أبدو للآخرين رجلًا متوحدًا- لكنني لم أفكر ولو لمرة واحدة أنه يمكن أن يكون أي شيء سوى صديق غير مرئي. لماذا

يجب أن يكون لدينا أي شيء مشترك في العالم الواقعي؟ إننا لعبنا الأدوار التي كُلفنا بها. فنحن شخصان تصادف وجودهما في نفس المكان في مدينة تضم عشرين ألفًا معظمهم غرباء بعضهم عن بعض.

لم أكن أبدًا من النوع الذي يقاطع نمط حياة قد بدأ بالفعل. وعلى الرغم من أن المسافة التي تفصل بوابة حديقته عن بوابتي لا تتجاوز اثني عشر مترًا فقط إلا أنها كانت منعطفًا لم أقدم أبدًا على قطعه.

# جلسة «أجاتا» الثانية

قالت: "يبدو الأمر وكأنني أهيم على وجهي حاملة واحدًا من تلك الصناديق، ذلك النوع الصغير الذي تحتفظ فيه الفتيات بألعابهن، هل تعرفها؟".

همهمت بالإيجاب.

ثم قالت: "كان موصدًا، وأنا أمسك به بشدة حتى لا يُفتح. وعندما يراه الناس من حولي يتخيلون أنه مليء بأنواع الأشياء كافة -المعرفة والصفات الطيبة والمهارات وما شابه ذلك- ولأنه موصد، فلا أحد يعرف حقيقة ماذا يحوي. ثم فجأة تعثرت وسقط الصندوق. ففُتح، وهذه هي اللحظة التي انكشف فيها الأمر للجميع بشكل محرج! الصندوق فارغ. لا يوجد فيه أي شيء على الإطلاق!".

كانت «أجاتا» مستلقية على ظهرها ويداها مطويتين تحت صدرها، وكانت عيناها تتسعان وهي تتكلم. ومن الزاوية التي كنت أجلس فيها، كان بإمكاني أن أدرس أقل حركة تصدر منها مهما كانت بسيطة، بينما كنت أنا نفسي جالسًا ومختبئًا بشكل يبعث على الراحة. ارتجفت رموشها السوداء قليلًا، وكان صدرها يصعد ويهبط بشكل إيقاعي، ولكنها كانت بلا حراك. وتدفق صوتها، رنانًا وسلسًا.

همهمت مرة أخرى: "إحم".

إن هذا الضجيج غير الملحوظ الذي لم يفرض أي متطلبات كان عادة أكثر من كافٍ لجعل مرضاي يتحدثون.

قالت: "شيء فظيع!".

ازداد صوتها عنفوانًا.

ثم تابعت قائلة: "أشعر وكأنني خائنة أوشك أمرها أن يُفْتَضح في أي لحظة. من يفضحه ومتى؟ هذه هي المسألة، لذا فقد لزمت السرير بالمنزل، وفجأة مر أسبوع".

وأخذت أفكر في الخيارات التي أمامي. هل أدعها تواصل حديثها أم أطرح سؤالًا أم أقوم بالتدخل مباشرة؟

وبدلًا من أن أقول شيئًا منطقيًا، سألتها: "هل يعرف أي شخص محتويات صندوقك؟ زوجك، مثلًا؟".

أجابت: "علاقتي أنا و«جوليان» معقدة".

قلت: "فهمت".

وعلي سبيل التجريب، اتخذت مسارًا آخر.

قلت: "ماذا سيحدث إذا فتحت الصندوق بنفسك، أو تركتِه في المنزل وخرجتِ خالية الوفاض؟".

ضحكت، إلا أن صوتها كان مكتومًا وسطحيًا لا يمت إلى الفرح بأي صلة.

ثم قالت: "حينها قد أتلاشى، يا دكتور. إن الصندوق هو

كل ما أملك!".

كل هذا الحديث عن الصندوق كان مُنهِكًا. كانت ركبتاي تؤلماني وكان ضغط الدم يتصاعد إلى أعلى صدغي. وقمت بمد ورفع ساقي عدة مرات بحرص حتى لا أزعج «أجاتا» مما أعانني على الاستمرار. باقي سبع عشرة دقيقة وبعدها سأتمكن من إغلاق الباب خلفها وأحسب إجمالي دخل اليوم، الذي كان يتجه نحو الصفر بعزم مطمئن.

قلت: "أخبريني بالمزيد عما يعتقد الناس أنكِ تخبئينه في الصندوق يا «أجاتا»".

هكذا سألتها وأنا شارد الذهن بينما كنت أضيف الخطوط العريضة للجناح المكسور للعصفور الحقير الذي أرسمه في مفكرتي.

# زنابق الماء

كان التحدث مع الناس الذين فقدوا عزيزًا من أسوأ الأشياء في عملي. فقد كان بوسعي أن أتعامل مع نوبة قلق عارمة أو عواقب تنشئة قاسية في أي وقت؛ إنما كان من المستحيل التعامل مع حالات الوفاة. ولم أكن أدري أبدًا ماذا أفعل مع المرضى الحزانى. ولكن وأنت تمارس هذا العمل على مدار خمسين عامًا من المستحيل أن تتجنب ذلك.

وفي يوم من الأيام وصل السيد «أنسيل هانري» إلى جلسته متأخرًا لأول مرة منذ أن بدأ علاجه. كان «أنسيل هانري» يعاني من عُصاب قهري، ووفقًا للقاعدة، كان من المستحيل أن أخطئ التشخيص: كان يجيء ويذهب في الوقت المحدد، ويجيب عن الأسئلة التي كنت أطرحها عليه. وكانت بدلته مصممة خصيصًا بحيث تنطبق على مقاييس جسمه تمامًا وكانت نظيفة ولا يشوبها أي شائبة كما لو كانت امتدادًا منطقيًّا لجسده المتيبس إلا أنه لا يبدو اليوم كذلك.

أقبل وهو يجر نفسه داخل المكتب متأخّرًا عن موعده عشرين دقيقة تقريبًا ثم هوى على الأريكة وتمتم قائلًا: "أعتذر يا دكتور".

قلت: "ادخل يا سيد. لقد يئست من قدومك اليوم".

و تساءلت عما إذا كان «أنسيل هانري» مريضًا. فقد بدا وكأنه قد استيقظ من النوم لتوه وجاء بملابس النوم. وكان من الواضح أنه لم يمشط شعره ولم يحلق. وفي تلك اللحظة بدأ يبكي وينتحب.

سألت: "ماذا جرى بالله عليك؟".

فأخذ يهز رأسه ودفن وجهه بين يديه. وكان جسده كله يرتعش على نحو يتعذر السيطرة عليه. نظرت إليه أوّلًا ثم إلى الباب المغلق، استولت عليّ رغبة قوية في استدعاء السيدة «سورجو» فهي تعرف ما يجب عليها فعله. كان من الواضح أن هذه مسألة تتطلب همة أنثوية لا تحليلًا سريريًّا.

كنت أبحث عن شيء أفعله فنهضت وجلبت منديلًا من الصندوق الخشبي الموضوع على الرف.

ثم تنحنحت وقلت: "أستطيع أن أرى أنك في محنة يا سيدي، ولكن إذا كنت سأساعدك، عليك أن تخبرني بما حدث".

في البداية لم أعتقد أنه سيجيب إلا أنه رفع رأسه قليلًا وقال: "لقد ماتت «مارينا»".

خرج الجَواب المتشنج من بين أنفاس متقطعة لاهثة: "ماتت بالأمس".

كانت «مارينا» زوجة «أنسيل هانر » هي الشخص الوحيد

في العالم الذي كان مغرمًا به. كان متحفظًا تجاه كل شخص آخر ولكنها تمكنت بطريقة ما من اختراق درعه.

جلس مريضي، وأخذ منديلًا وجفف عينيه قبل أن يتمخط بشدة. ثم طرفت عينيه وارتبك قليلًا، ونظر إليَّ بشكل مباشر للمرة الأولى. فرمقته بنفس الطريقة التي رمقني بها، لكن لم أكن أعرف ماذا أقول. ماذا يريد مني؟ كانت يداي مثل حيوانين مضطربين أضمهما في حضني، وقبضت بيدي اليسرى على اليمنى بقوة وضغطت.

قلت: "يؤسفني أن أسمع ذلك".

أومأ برأسه إلا أن التواصل البصري بيننا لم ينقطع. هل كان يستطيع أن يعرف أنني كنت أعاني؟ هل كان واضحًا له أنني لم يكن لدي أي فكرة عن الطريقة التي يمكن أن أساعده بها؟

قلت: "الجميع يعرف أنه خلال فترات حزن عميق مثل هذه، يمكن للمرء أن يرتد إلى مراحل سابقة".

بدأت أشعر أنني أتكلم أسرع وأسرع.

فتابعت قائلًا: "قد تجد أنك أصبحت غاضبًا أكثر من المعتاد، أو أنك تفقد الاهتمام بالأمور اليومية لفترة من الوقت. هذا طبيعي تمامًا، فلا داعي للخوف. إن ذلك عابر وسوف يمر".

أرسلت إليه ما كنت أتمنى أن تكون ابتسامة مشجعة وقلت: "ذلك سوف يمر".

تجهم «أنسيل هانري» ولم أعد قادرًا على الاحتفاظ بالتواصل البصري بعد الآن، فنظرت إلى مفكرتي بدلًا من ذلك بينما كنت أدون بضع كلمات عشوائية.

قال: "من المقرر أن أدفن زوجتي في غضون ثلاثة أيام. الشخص الوحيد الذي أحببته قد مات".

كان صوته معبأ بالدموع وأجش.

وقال: "أتقول لي إن ذلك سوف يمر؟".

على الفور شعرت أن فمي يجف جفافًا شديدًا وبدا كأني أحرك لساني في غِراء.

فأجبرت نفسي على أن أقول: "لم أقصد ذلك. إنني آسف للغاية لفقدانك إياها يا سيدي".

كان هذا كل ما لدي فلوحت بذراعي وقلت: "هل لي أن أقترح تأجيل حديثنا حتى تكون مستعدًّا؟".

رمى بالمنديل المُكَوَّر على الطاولة وهو يخرج ببطء متقهقرًا. تابعت حركاته بعيني مع مرور الدقائق، ولسبب ما لم أستطع أن أزحزح نفسي لأخرج من هذه اللحظة حتى عندما كانت ثابتة تمامًا مثل زَنْبَقَة الماء المنزوي على خشب المكتب الماهوجني المَصْقُول، وبقيت جالسًا في

مقعدي.

## جلسة «أجاتا» الثالثة

دفعت بعدة أنفاس عميقة إلى رئتي، وحركت رأسي يَمْنَة ويَسْرة وهززت كتفي هزًّا متموجًا حتى أضخ الدم في جسدي. كنت أصاب غالبًا بالتشنج في الجانب الأيسر من جسدي. وهو نفس الجانب الذي يواجه النافذة.

ثم فتحت الباب وقلت: "طاب يومك، يا «أجاتا»، تفضلي".

بدت أنفاسها لاهثة قليلًا؛ فهي غالبًا ما كانت تظهر في اللحظة الأخيرة وبالكاد يكون لديها الوقت الكافي لشغل مقعد في غرفة الانتظار قبل أن أدعوها للدخول.

قالت: "شكرًا لك، يا دكتور".

بعد أن علقت سترتها وحررت نفسها من وشاح كبير كان محبوكًا عليها، استلقت على الأريكة. اليوم، كانت ترتدي فستانًا أرجوانيًّا وحذاء أسود خفيفًا، وانسدل شعرها الداكن على كتفيها. وجعلتها خصلات شعرها القصيرة التي تتدلى على جبينها تبدو أصغر من سنها. وعندما استلقت على الأريكة وطوت يديها فوق بطنها ذكّرتني بصَبِيَّة صغيرة من حكاية خرافية قرأتها ذات يوم.

وقبل بضعة أسابيع، طلبت منها أن تدون كل أحلامها. ومن ثم بدأت تروي لي أحدثها قائلة: "كان هناك رجل لا

أعرفه يريدني أن أنظر من خلال تلسكوبه. في البداية كانت الصورة مشوشة، ولكن عندما قمت بتعديل العدسة أصبح المشهد في البؤرة فرأيت أمعاء ورئتين وقلبًا وجميع أنواع الأحشاء. إن التلسكوب كان داخل جسدي، كما ترى".

لم تذكر عائلتها كثيرًا خلال الساعات التي قضيناها معًا، لكن شعوري بأنها على وشك أن تأتي على ذكرها تأكد عندما سألتها:

"ماذا يجول بخاطرك عندما أقول كلمة تلسكوب؟".

أجابت: "أبي".

قلت: "لماذا؟".

أجابت: "كان والدي أعمى وكان بارعًا في استخدام يديه لدرجة أنه كان قادرًا على إصلاح الساعات وجعل كل أنواع الأشياء تعود للعمل مجددًا بالرغم من أنه لم ير أبدًا كيف تبدو. وكان لديه ورشة صغيرة حيث كان يأتي إليه الناس بأجهزة مُعَطّلة فيخبرونه كيف تبدو ويسألونه ماذا يفترض أن يفعلوا. ثم يجلس مع جميع أوعيته وصناديق قطع الغيار الخاصة به، وحسب مدى تَعَقُّد الآلة كان يحدد عدد الأيام أو الأسابيع التي سوف يستغرق إصلاحها. وبعدها تعمل بكفاءة تامة مرة أخرى".

ابتسمت ابتسامة فاترة نوعًا ما ثم تابعت قائلة: "حدث أن تسلم ساعة من امرأة جاءت إليه من سويسرا. كانت

ساعة جيب ذهبية دقيقة جدًّا وقد توقفت بعد عشرين سنة. واستغرق إصلاحها خمسة أسابيع قبل أن يجعلها تعمل مرة أخرى. كانت أجزاؤها متناهية الدقة للغاية حتى إنني بالكاد تمكنت من التقاطها بأصابعي. وكان لديه هذه الأدوات الدقيقة التي تشبه الملقاط الصغير...".

ثم تلاشى صوتها.

سألت: "والتلسكوب في الحلم، هل هو إشارة إلى فقدانه لبصره؟".

أجابت: "ليس تمامًا، لا. فوالداي انتظرا وقتًا طويلًا قبل أن يُرزقا بي. كانا يخشيان أن تكون إعاقته وراثية، وأنني سوف أولد عمياء أيضًا، ولكنهما تحدثا في النهاية إلى طبيب كان يعتقد أن ذلك لن سيحدث. لذلك حملت أمي. وقد شعرا بالارتياح عندما قال الأطباء إن عينيّ تعملان بكفاءة تامة، وأعطاني والدي تلسكوبًا نقش عليه كلامًا كهدية تعميد".

سألت: "ماذا كتب؟".

قالت باللغة الألمانية: "Für Agathe, der Apfel meines Auges".

لم تكن الأصوات الغريبة الدقيقة التي تنطق بها الاسم تعنيني في شيء، لكن التركيز الدقيق على كل حرف، حتى حرف الثاء قبل الأخير، كان يناسب «أجاتا» تمامًا. فاسمها

ينطق بشكل مختلف باللغة الألمانية، وتساءلت عما إذا كانت قد أصابها السأم من سماعه يُنطق بشكل غير صحيح طوال الوقت: «أجاثا». شعرت برغبة في نطق اسمها: «أجاتا» بصوت عالٍ كما فعلت هي للتو، لكنني التزمت الصمت المطبق.

قالت موضحة: "إن ما نقشه يعني شيئًا على غرار مقلة عيني".

فقلت مقترحًا: "أو لعلها قرة عيني".

ثم ألمحت قائلًا: "والآن، هنا، في هذا المكتب، أنت سوف تديرين التلسكوب على نفسك".

في نفس اللحظة انتابتني دهشة لأنني عرفت أخيرًا ما هي رائحة عطرها. إنها رائحة التفاح بالقرفة المخبوز في الفرن بنفس طريقة أمي المعتادة.

# ما بيننا

كان رقم اليوم هو خمسمئة وتسعة وعشرون. وقد استيقظت الساعة 6.25 صباحًا وكان قلبي يدق دقًا مدويًّا وهناك وخز شديد في ساقي اليسرى. اعتقدت في البداية أنني لا بدّ لم أنم بعمق، لكن الوخز لم يتوقف لما أخذت أتجول في الغرفة الأمامية. لم يكن هناك حيز ومتسع كافٍ، هكذا فكرت بعصبية عندما ارتطم مفصل وَرْكي بطاولة الطعام. فماذا لو سقطت هنا؟ كم من الوقت سيمضي قبل أن يجدني أحد؟ شعرت برغبة شديدة في أن أقيس نبضي إلا أنني كنت أعلم أن هذا سوف يزيد الطين بَلَّة. ومن ثم طمأنت نفسي بأنني إذا مت من نوبة قلبية مباغتة، فسينتهي الأمر في الحال والسؤال عما إذا كانوا سيعثرون عليَّ أم لا سيكون سؤالًا في غير موضعه.

وبالفعل أفلح الأمر. فبعد ذلك بساعة أغلقت باب البيت خلفي وأنا أحمل حقيبتي في يد وعصاي في اليد الأخرى. وانعطفت حول زاوية الطريق، ثم عبرت شارع «مارتين» وواصلت النزول أسفل المنحدر. بدا الطريق أكثر حدة مما كان عليه قبل خمس سنوات فقط. إن أشياء من هذا القبيل لا يكتشفها المرء إلا بعد أن يتقدم به العمر: الأرصفة الوعرة والممرات المتعرجة. كان ينبغي أن يظهر المرء مزيدًا من التقدير لساقيه عندما كانتا تعملان.

وفي ذلك اليوم، قمت بالدوران حول منعطف بسيط بالقرب من مقهى كنت أستخدمه لسنوات كخلفية لفنتازيا خاصة كانت بدايتها حين صادفت زوجين في منتصف العمر يجلسان بالداخل على واحدة من الطاولات الصغيرة. لسبب ما، توقفت في الشارع وحدقت فيهما بينما رفعت هي يدها ورَبّتَت على خده. انحنى هو على راحة يدها، وشعرت أنه، أنا، من كان جالسًا هناك، وشعرت بدفئها يتدفق إليه، فبات من المستحيل تمييز أحدهما عن الآخر.

ومنذ ذلك الحين أصبحت معتادًا على المرور على المقهى وأتخيل نفسي جالسًا هناك ذات يوم. ولم يكن بالمقهى اليوم سوى عدد قليل من الرواد يقرؤون الصحف ويحتسون قهوة الصباح، وبعد أن ألقيت نظرة تفقدية واحدة، توجهت رأسًا إلى العيادة.

عندما دخلت نهضت السيدة «سورجو» من على مكتبها لتحيتي. إلا أن توقيت كل منا لم يكن متفقًا مع الآخر. فقد ناولتها المعطف، وبينما كنت أعطيها العصا اصطدمت أيدينا. كان الأمر غريبًا، لأن كل لحظة تم اختصارها تدريجيًّا على مدار السنين لصالح الضروريات الأكثر إلحاحًا، وعادة ما كان كل شيء يمضي تلقائيًّا من دون أن يفكر فيه أحد منا. تلافيت النظر إلى عينيها، وشعرت بشيء من الحرج وحرصت على أن أبلغ مكتبي في أمان. أخذت منها حزمة ملفات الحالات المرضية وصدر مني صوت ربما كان يلمح

إلى شكر مني لها، ثم لذت بالفرار.

ولحسن الحظ، في اللحظة التي غرقت فيها بالمقعد، نسيت كل شيء بخصوص السيدة «سورجو». رميت نظرة خاطفة غامضة على ملاحظاتي المدونة، وسرعان ما استغرقت في تفكير عميق. وتخيلت الحال لو اتضح أن الحياة خارج هذه الجدران كانت بلا معنى مثلما هي الحياة بداخلها. كان ذلك بالتأكيد مجرد احتمال. كم مرة استمعت إلى مرضاي وهم يشكون من حياتهم شكوى مرة وانتابتني غبطة لأنها لم تكن حياتي؟ كم مرة نظرت إلى روتينهم اليومي بازدراء أو سخرت سرًّا من مخاوفهم الحمقاء؟ حدث أنني كنت أتخيل أن حياتي سارت على الدرب الصحيح، ومكافأتي عن كل ما بذلته من كد ودأب كانت في انتظاري عندما أتقاعد. ومع ذلك، وبينما كنت أجلس هناك، لم أستطع أن أعرف طوال حياتي ما الذي يستحق التطلع إليه في هذا الوجود؟ وحتمًا كانت هذه هي الأشياء التي كنت على يقين منها وليس الخوف والوحدة فقط.

"وأسفاه! أظن أنني مثلهم تمامًا". هكذا فكرت.

خرجت كي أحيي أول مريض لهذا اليوم ووَرْكي يرتجف والحزن يخفق بين أضلعي.

# جلسة «أجاتا» الرابعة

لقد عالجت عددًا من مرضى الهوس على مر السنين، وكانوا غير مستقرين، أو قلقين، أو مصابين بذُهَانٍ خفيف، وذات مرة تحدثت مع رجل قامر بثروته بالكامل في ثلاثة أيام محمومة لأنه يعتقد أن الله وهبه دون غيره قدرة على اختيار الحصان الفائز.

أما «أجاتا» فقد كانت حالة مختلفة عنهم جميعًا. فعلى الرغم من أنها كانت تقاوم مقاومة واضحة، إلا أنها التزمت بحضور كل جلسة. وكان انطباعي الرئيس عنها أنها غير سعيدة. والحقيقة أنني بدأت أتساءل عما إذا كان تشخيص مستشفى القديس «إستافان» لحالتها كان صحيحًا، لذلك قررت ذات يوم أن أسألها: "«أجاتا»، لقد أحضرتِ الملاحظات الخاصة بحالتك عندما جئت إليَّ، وهناك شيء أود أن أسألك عنه".

قالت بنبرة لاذعة: "حقًّا؟ لقد كنت أنا نفسي أتساءل عن بعض الأشياء. على سبيل المثال، أنا لا أفهم كيف أن القيام بربط شخص بائس بالسرير وإرسال الصدمات الكهربائية عبر دماغه يساعد في علاجه".

هممت معترفًا: "همم، لا. أنا شخصيًّا لم أكن مغرمًا أبدًا بالعلاج الكهربائي أو صدمات الأنسولين، لكنهم يقولون إن لهما تأثيرًا مفيدًا في علاج الحالات المستعصية".

هزت كتفها متجاهلة ما قلته.

وقالت: "حَسَنًا، إنهم لم يفيدوني في شيء".

قلت موضحًا: "ما أتساءل عنه هو تشخيص حالتك. لقد كنت أتحدث إليك منذ أكثر من شهرين، وأنت تنعتينني مباشرة بالمحبط. هل ما زال لديك نوبات هوس؟".

استلقت «أجاتا» لحظة، وهي تفكر.

ثم قالت: "لست متأكدة مما يتشكل الهوس. لكن تلك النوبات الشرسة من الاهتياج تنتابني، وأحيانًا تتملكني طاقة معينة، وبعدها أستطيع بالكاد أن أمنع نفسي من ممارسة العنف ضد نفسي. فعلت ذلك قبل أيام".

رفعت خصلات شعرها القصيرة التي تتدلى على جبينها لتكشف عن جرح صغير ولكنه بليغ أعلى صدغها.

قالت: "ضربت رأسي في الدولاب".

قلت باقتضاب: "هذا شيء سيئ".

وكنت أظن أن التشخيص قد يكون مناسبًا جدًا.

قالت: "أنا سعيدة للغاية لأنني أدفع لك هذا المبلغ الهائل لتسبر أغوار عقلي، يا دكتور".

قلت: " تفوزين".

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام.

وبمجرد أن غادرت، تساءلت عما إذا كنت أنا الذي أصبت على الأرجح بثنائية القطب. ورغم أنني ما زلت أقول لنفسي إن «أجاتا» كانت تمثل لي مصدرًا للإزعاج وأنه لم يكن ينبغي أن تأتي إليَّ أبدًا، إلا أنني تساءلت أليس صحيحًا أيضًا أنني بدأت أستمتع بالحديث معها؟ ألم يكن الوضع كذلك؟ ولكي أكون صادقًا فقد كنت أهمل تهوية المكتب في الأيام التي تأتي فيها، محاولًا الحفاظ على عبق رائحة التفاح التي تفوح منها لفترة أطول قليلًا.

**28 أبريل 1948**

صباح الخير يا سيدي

لأسباب شخصية، اضطررت مع الأسف إلى البقاء في المنزل ولن أذهب للعمل لبضعة أسابيع، وربما لفترة أطول. ملفات حالات اليوم جاهزة، والبقية، كما تعلم، مصنفة في الأرشيف حسب السنة واللقب خلف المكتب. خالص اعتذاري!

**«أ. سورجو»**

# الخطاب

على مدار الخمسة والثلاثين عامًا التي عملت فيها السيدة «سورجو» لحسابي، لم تحصل على إجازة مرضية سوى مرتين. مرة عندما ماتت والدتها، والأخرى عندما أصيبت بنوبة عنيفة من الالتهاب الرئوي أبقتها طريحة الفراش لعدة أسابيع، لذلك قرأت رسالتها بشيء من القلق.

ما خطبها؟

أشرقت شمس الربيع توًّا، وكان الهواء في المكتب خانقًا وجاثمًا. ففتحت نافذة وتناولت حزمة الملفات. من دون سكرتيرتي كانت الغرفة الفسيحة خاوية بصورة غريبة. وبالرغم من أن علاقتنا لم تبلغ أبدًا حد رفع الكُلْفة في ما بيننا إنما كانت علاقة قوامها الود فَحسْب إلا أن سكرتيرتي كانت جزءًا مهمًّا من مكان عملي مثل أريكة المرضى أو مقعدي الجلدي.

مرت استشارات اليوم دون أن يتمكن أي واحد من مرضاي أن يفاجئني أو يثير اهتمامي. أوّلًا جاءت السيدة «أوليف» العُصابية، التي كانت تنظف كل أطقم الشاي في منزلها كل صباح قبل أن تستيقظ بقية الأسرة من النوم. ثم السيدة «ماوراسمو»، التي أساء زوجها معاملتها حتى بلغت حدًّا كان ينبغي عنده أن تتركه منذ أمد طويل، ولكن بدلًا من ذلك حولت غضبها إلى شعورٍ بالعار دون وعي منها. وأخيرًا

السيد «بيرتراند»، الذي يبدو أنه بحاجة إلى شخص ما كي يتحدث إليه. لقد جاء إليَّ في الأصل شاكيًا من آلام في الصدر، وعلى الرغم من أنني ما زلت أستمع إلى تردد نبضات قلبه بين الحين والآخر، فإن محادثاتنا تدور الآن حول الصعوبات التي يواجهها وهو يحاول أن يثبت ذاته كلما تعامل مع أطفاله.

كنت أجلس على مقعدي في حالة تشبه الغيبوبة. وأخذت أستمع إلى خلاصة حكاية السيد «بيرتراند»، عندما سمعت فجأة صوت ارتطام في منطقة الاستقبال. استأذنت مريضي وخرجت بسرعة كي أرى ما الذى جرى. لقد انقلبت مزهرية بها زهور صفراء على مكتب السيدة «سورجو» الكبير، وتبعثرت الأوراق على الأرض، استغرق الأمر لحظات قبل أن أدرك ما حدث. لقد نسيت تمامًا أنني تركت النافذة مفتوحة، وبالطبع، تعاقبني الرياح الآن جراء ذلك. لا بدَّ أن مرضاي كانوا يجلسون هم أيضًا في تيار الهواء. ومرة أخرى وجدت نفسي أفتقد سكرتيرتي. أغلقت النافذة وقمت بتنظيف مبدئي، ثم عدت إلى مريضي. وسرعان ما أنهيت الاستشارة.

قال: "أراك في غضون أسبوع، يا دكتور".

كان السيد «بيرتراند» يقول نفس هذه الكلمات في كل مرة نختتم فيها إحدى جلساتنا. في الواقع، لعل كل شيء يبدو لشخص في عمري مجرد تكرار. باقي أربعمئة وثماني

وأربعين جلسة، هكذا فكرت في محاولة لكي أبهج نفسي، أربعمئة وثماني وأربعين مرة فقط يجب أن أتحدث فيها إلى واحد من هؤلاء الأشخاص الذين لم أحاول حتى الآن أن أفهمهم.

بعد نزهة الصباح أخذت أمشي في طواف قصير حتى وصلت إلى مطعم «مون جوت». أما المالك، الذي لم أكن أعرف اسمه ولكنني كنت أرى وجهه الذي تتناثر عليه البثور خمسة أيام في الأسبوع منذ افتتاح المطعم. لقد أومأ في صمت في اتجاه مائدتي. وبعد لحظات وصل طبق كبير من البطاطس ولحم فخذ الخنزير اللامع.

لم يكن «مون جوت» معروفًا بتقديم خدمة عالية الجودة، ولكن طبق اليوم كان عادةً طيب المذاق وكانت طاولتي متاحة دائمًا. وعندما قمت برش جبن «البارميزان» على البطاطس وغرفت طعامي، استمتعت بتذكر أنواع الأطباق التي تمثلها الأرقام المختلفة في القائمة. وبمجرد أن انتهى وقت الوجبة احتسيت وراءها كوبين من الماء كعادتي. كنت سأحصل على الوجبة رقم ثلاثة وعشرين من أصل أربعة وعشرين.

# جلسة «أجاتا» الخامسة

وأخيرًا وصلت، كانت أنفاسها متقطعة ووجهها متوردًا بشكل محموم. اعتدلت في مقعدي.

لم يكن هناك سبب يجعلني أبدو أكبر سنًّا مما كنتُ عليه حقًّا.

قلت: "طاب يومك، يا «أجاتا»، تفضلي".

أجابت بهدوء: "طاب يومك، يا دكتور، أعتذر بشدة عن التأخير!".

علقت معطفًا لونه بيج لم أره من قبل على المشجب وسألتني: "خبرني، كيف حال سكرتيرتك؟".

قلت: "أخشى أنه سيتعذر على سكرتيرتي المجيء إلى العمل في الوقت الحالي".

قالت وهي تبتسم بطريقة تآمرية: " أفهم ذلك. إذًا فأنت أيضًا وحيد".

قلت وأنا أرتقي إلى العذاب: "هل أنتِ وحيدة يا «أجاتا»؟".

هزت كتفيها، وغيرت وضعها على الأريكة ثم استلقت بحرص، كما لو كانت تصب نفسها في قالب لا يراه أحد سواها.

قالت: "بطريقة أو بأخرى نعم. هناك شيء يُشعرك بالوحدة عندما لا تكون حيًّا، وعندما تشاهد أشخاصًا آخرين يلعبون بينما ساقاك أنت مكسورتان".

كنت أعرف هذا الشعور حق المعرفة، لكن من حسن حظي أنني كنت أجلس على مقعد المعالج النفسي بينما كانت هي مستلقية على أريكة المرضى.

قلت: "أنتِ غالبًا ما تتحدثين كما لو كانت حياتك قد انتهت بالفعل يا «أجاتا». لقد دمرتِ كل شيء يخصك ولكنك تملكين في كل لحظة فرصة للقيام بشيء تفتخرين به".

كان من الصعب ألا أشعر بالاشمئزاز من عاري الخاص. ما الخيارات التي تبنيتها أنا وتستحق أن أفتخر بها؟ ما الخطط الكبرى التي وضعتها لتقاعدي؟

هزت «أجاتا» رأسها وقالت: "الآن فات الأوان بكثير على قبولي في كلية جيدة، وحتى لو كنت أعرف ما أريد، فأنا لا أملك المال. ولو كنت جادة حقًّا بخصوص البيانو أو الغناء، كنت سأفعل شيئًا حيال ذلك من قبل. أنا كبيرة السن جدًّا الآن يا دكتور".

تخيلت أنني شبه قادر على أن أرى اليأس ينتشر في ما بيننا مثل الضباب الكثيف، غيرت وضعي في مقعدي إلى الأمام كي أظل مسيطرًا عليها وقلت: "ليس صحيحًا أن

الأوان قد فات على أي شيء، يا «أجاتا». أعتقد أن الحياة تتكون من سلسلة طويلة من الخيارات التي نحتاج إلى تبنيها. وإذا رفضنا قبول تلك المسؤولية حينها فقط يفقد الأمر أهميته".

كنت أقوم بتنويع كلامي في هذا الإطار مئات المرات، وربما آلاف المرات، ولكن بما أنني كنت أفتقر لأي خبرة حقيقية وإيجابية في بث الروح في الكلمات، فقد ظلت كلماتي مجرد تجريد بحت. ومع ذلك، كنت آمل أن تتمكن «أجاتا» من استخدامها. استلقت هناك وكان على معصميها نَدْبات وبدت هشة وشفافة كالزجاج. وعلى الرغم من أنني شعرت بأني منافق إلا أن نواياي كانت طيبة بما يكفي. لقد أردت حقًّا مساعدتها بطريقة أدت إلى تعقيد كل شيء.

قالت: "إنني أسمع ما تقوله، يا دكتور. ألا تعتقد أنني حاولت أن أقول لنفسي الشيء نفسه مِرارًا وتكرارًا؟".

غامرت بالقول: "في بعض الأحيان من المفيد سماع ذلك من شخص آخر".

قالت: "ربما. وأعتقد أنني أحاول بالفعل، لكن الحياة تواصل الإفلات من بين أصابعي. إنها موجودة هناك، قريبة جدًّا حتى إنني أستطيع تقريبًا أن أشم رائحتها".

كانت تحدق في الفضاء ساهمة بشكل حالم.

تابعت: "لكنني ببساطة لا أستطيع أن أعرف كيف يمكن

للمرء أن ينفذ إلى داخل الحياة" .

بعد أن غادرت بخطوات لا صوت لها تقريبًا حاملة مظلة مُخَطَّطة تتدلى من يديها بشكل فضفاض، تملكتني الحيرة حول ما كانت تقصده بكلمة «حي». من منظور خارجي كان هذا بالضبط ما كانت تفعله: إن لديها قلبًا نابضًا، وقد تعلمت وبنت منزلًا، لذا إذا لم تكن «أجاتا» تحيا، فمن الذي يحيا إذًا؟

قمت بإطفاء مصباح المكتب وسرت عبر الغرفة فاندفع كل ما هو عابر إلى أذني. كان من الصعب استيعاب أنني سأغلق العيادة قريبًا وبلا عودة. وحاولت تخيل الطبيب الذي سيأخذ العيادة من بعدي. سيكون على الأرجح من الشباب النابض بالحياة المفعم بالحلول السريعة. هل هو من سيواصل علاج «أجاتا»؟ وهل سيحرز تحسنًا في حالتها في نهاية الأمر؟ إنني أفضل أن تظل مريضة بدلًا من أن يشفيها شخص آخر غيري وكنت أدرك أن ذلك أنانية مني.

قضيت وقتًا طويلًا في إعادة الملفات إلى مكانها الصحيح: وهذا أشعرني بالراحة. ثم جلست على مقعد السيدة «سورجو» المهجور خلف الآلة الكاتبة. وبالخارج، أخذ الضوء يتلاشى.

# المرآة

على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي حتى أتجاهل الأمر، لم يكن هناك مجال للالتفاف حول حقيقة: إن الهلع الذي ينتابني يزداد سوءًا. فمرة بعد مرة أستيقظ وقلبي يدق كالمطرقة وينتابني شعور بأن الموت في أثري. وبطبيعة الحال كان هذا الشعور ينزوي وأنا أمارس عملي. بدأت أشك في نفسي. أما التفسيرات التي كنت سأطرحها مرة تلو الأخرى فقد التصقت في حلقي، لذلك كان ينبغي أن أبصقها في مثل هذا التوقيت البائس، وكانت معجزة أن ليس أحد من مرضاي أبدى اعتراضًا.

كان مرضاي مهذبين للغاية ومنهكين في شؤونهم الذاتية للغاية. وبحلول الوقت الذي قام فيه آخر زائر لهذا الأسبوع بإغلاق الباب خلفه، كان السأم من هذه الحفلة التنكرية قد بلغ بي أقصى مدى. ولم أجد عزاء حتى في حصيلة اليوم من الأتعاب. ليت أحدهم يتنازل فقط ويسألني عن الجحيم الذي كنا نلهو ونعبث فيه. هكذا فكرت وأنا أضرب باب خزانة السجلات بقوة حتى إن المفتاح سقط على الأرض. كان شيئًا طيبًا أن السيدة «سورجو» لم تكن موجودة كي ترى كيف أعامل أثاثها العزيز على نفسها.

أخذت شهيقًا، وحبسته، ثم أرسلته زفيرًا قويًا.

اهتزت يدي بوهن فأصوات مرضاي كانت تطن داخل

جمجمتي، وتتجمع أعلى صدغي في نشاز جماعي عارم. هل كان كل الناس تعساء حقًّا إلى هذا الحد أم أنني فقط الذي أقابل التعساء؟ هل كان ثمة شخص في أحد تلك المنازل الصغيرة يأوي إلى فراشه وهو يشعر بالرضا ويعرف لماذا سيستيقظ مرة أخرى في اليوم التالي؟

وحدث أنني نسيت أن أتناول الإفطار.

لم يكن لدي أدنى فكرة عن وقتي فيم أمضيته؟ وقد أنبني ضميري للحظة عابرة عندما جعلت مالك العقار المذعور ينتظر بلا جدوى. ثم انتابني الغثيان. واضطررت إلى إجبار ساقي على حملي إلى الحَمّام الصغير حيث تجرعت بضع رَشَفَات من الماء البارد من الصنبور رأسًا. تجمع العرق على ظهري كالجُلَيْدَة، وتضاعفت نبضات قلبي.

أغلقت الصنبور واستقمت. اجتاحت جسدي نوبة دوار خفيف مألوفة، وأمسكت بالحوض حتى لا أفقد اتزاني.

عندما حدقت في المرآة، وبحثت عن وجهي، كان مقفرًا وشاحبًا.

لا أحد هناك! وعلى الرغم من أنني كنت أعلم جيدًا أنه لم يكن لدينا مرآة في هذا الحَمّام، فقد استغرقت وقتًا طويلًا حتى تذكرت تلك الحقيقة واستغرق فكري وقتًا كي يصوغها: فعلًا، ليست موجودة!

وقفت هناك مستندًا إلى حوض البُورْسَلِين البارد حتى

تأكدت من أنني قادر على المشي دون أن أسقط. سحبت سلسلة الباب، وفتحته وغادرت الغرفة، ثم نظرت سريعًا خلفي إلى الجدار الأبيض العاري من المرآة لآخر مرة.

# تشايكوفسكي

بعد تجربتي في الحَمّام، لم أرغب في شيء سوى أن أعود إلى المنزل فَحسْب، لذلك تركت بقية الملفات حيث كانت وأخذت قبعتي ومعطفي حتى دون أن أرتدي أيًّا منهما. استغرق المشي في الشوارع المتعرجة تسع دقائق ونصف الدقيقة في يوم كان طقسه لطيفًا، وبينما كنت أمشي مهرولًا لم تكن ركبتاي تؤلماني بشدة بل إن الألم اليوم كان أقل من سابقه. وطوال الطريق حاولت إقناع نفسي بأنني كنت شخصًا آخر. ولعل تلك الفكرة تحمل غرابة، ولكن يجوز للمرء أن يشك في هويته. لم يتبق لدي لا عائلة ولا أصدقاء، ربما يكون هذا هو المعيار اللازم للتواصل مع الناس إذا كانوا محل اهتمامي. وبصرف النظر عن اهتمامي الأخرق بالموسيقى الكلاسيكية، لم يكن لدي أي ولع خاص بأي شيء خلاف شرب الشاي طيب المذاق والقيام بعملي بطريقة منهجية. وحتى في ما يتعلق بالأخير، بدت الأمور وكأنها تنحدر إلى الحضيض.

وفي منزل كبير مُعتنى به ومُصان جيدًا تسلق جدرانه شجر الكَرْم وغطاها، جلست امرأة ضخمة في غرفتها الأمامية أمام جهاز تلفاز يُلقي بأضوائه على وجهها الشاحب كما لو كان من الشمع. هل سأقضي ما تبقى لي من أيام وأنا أحملق في مثل هذه البدع الغريبة حتى تجحظ عيناي، أو أشاهد صورًا لأشخاص لم أكن أعرفهم، أو أزرع أحواض زهور في

الحديقة، أم أذهب للنوم فقط وأتناول الطعام بينما يفلت زمام جسدي من يدي؟ وما زاد الطين بلة، أنني تذكرت فجأة مقالًا قرأته مؤخرًاعن العدد المدهش من الرجال الذين يموتون بمجرد أن يحالوا إلى التقاعد رغم أنهم كانوا على وشك الاستمتاع بكل الوقت الذي وجدوه أخيرًا بين أيديهم. ورغم أن ذلك قد يطرح على الأقل حلًّا لمشكلة ما يجب عليَّ القيام به حيال نفسي، إلا أنني وجدت نفسي أفكر بهذه الطريقة الكئيبة بينما كنت أدفع بوابة الحديقة.

عندما دخلت المنزل ذهبت مباشرة لإلقاء نظرة على الثلاجة وكان المشهد محبطًا: كرتونة بها بيضتان، بَرطَمان مربى، بعض الزبد وقطعة جبن جافة. وقررت أن اليوم كان واحدًا من تلك الأيام التي لا يمكنني أن أزعج فيها نفسي حتى بسلق البيض، لذلك قمت بإعداد الشاي وبعض الشطائر وقمت بتناولها على طاولة المطبخ على صوت تَكَّات الساعة المتثاقلة. كان الخبز لدنًا، ولو كنت أتناول الطعام من أجل الاستمتاع، لاختلفت قائمة الطعام إلى حد ما.

وفي وقت لاحق جلست على مقعدي ووضعت دثارًا فوق ركبتي وتركت الساعات تمر بي. أخذت أستمع إلى الموسيقى وأعيد إبرة الجراموفون لتبدأ من جديد. وأخذت يدي تتحرك من تلقاء نفسها، بحيث أصبح إعادة تشغيل الإبرة جزءًا من العمل فأعود بالزمن إلى الوراء وبنفس

الحركة أتقدم بالزمن إلى الأمام. وفي النهاية كنت بحاجة إلى استخدام الحَمّام. وبينما كنت أقف هناك، خطر ببالي أنني لم أعد أمارس العادة السرية. منذ متى كان ذلك؟ نظرت إلى أسفل وضغطت على عضوي الذكري المهمل ضغطًا مطمئنًا قبل غلق السحاب والانسحاب ثم ارتديت مَنَامَة بالية زرقاء وذهبت إلى النوم.

# جلسة «أجاتا» السادسة

بعد ظهر يوم سبت كنت أسير في شارع «بافيليون» في طريقي إلى المنزل عائدًا من المتجر الذي أذهب إليه أسبوعيًّا. وعند الزاوية حيث يعبر الشارع منطقة «بولافارد دا راينز»، مررت بالمقهى الصغير كالمعتاد. وعندما نظرت إلى الداخل رأيتها: «أجاتا»

إلا أنها كانت «أجاتا» أخرى غير تلك التي أعرفها. كانت ترتدي بلوزة لونها أحمر داكن مما جعل بشرتها البيضاء تبدو متوهجة. وعلى الرغم من أنها كانت جالسة إلا أن جسدها كله كان يتحرك. كانت ترسم بيديها دوائر كبيرة في الهواء، وأشرقت عيناها إشراقًا كئيبًا تحت خصلات شعرها التي تتدلى على جبينها وهي تشرح شيئًا لثلاث سيدات أخريات يجلسن إلى الطاولة. كان فمها أجمل ما فيها وبدا ذلك عندما ألقت برأسها إلى الوراء في نوبة ضحك يتعذر التحكم فيها.

ودون أن أفكر وقفت خلف شجرة في حديقة صغيرة تقع على خط عمودي من المقهى، حيث يمكنني من نقطة المراقبة تلك رؤية النقطة الحمراء التي هي «أجاتا». حاولت أن أتخيل كيف ستبدو لو جلسنا إلى الطاولة نحن الاثنين مقابل بعضنا البعض. ستكون أكثر جدية مما بدت عليه للتو، ولكن بنفس فمها الرقيق، هكذا فكرت، بينما تخيلت

أنني رأيت فرشاتها تزيح من على وجهها بضع خصلات من شعرها وتميل إلى الأمام لتضع يدها على ساعدي.

وقفت هناك وأنا أشبه بمتلصص خسيس إلى أن خرجت «أجاتا» من المقهى وودعت صديقاتها. كان هناك ألم في ركبتي، لقد وقفت لفترة طويلة، لكنني بالكاد لاحظت ذلك. وعندما بدأت تمشي إلى المنزل عبر المدينة مشيت في أثرها حاملًا حقائب التسوق. كنت في حالة انتشاء مع شعور متزايد بالرغبة، ومثقلًا بشعور بالعار كان مألوفًا لي للغاية إلى أن رأيتها تدخل إلى منزل أبيض مكون من طابقين في شارع «لانسين» ثم سطع ضوء في الغرفة الأمامية. وبصورة غريبة انتابني شعور حميمي من الألفة والدفء لمجرد أنني أعرف أنها نامت في هذا المبنى، وأنها اسْتَحَمت وارتدت ملابسها، وأنها كانت تسير على هذا الرصيف تحديدًا في كل مرة كانت تأتي لمقابلتي.

وقفت هناك لبعض الوقت وتظاهرت بالبحث عن شيء في أحد الأكياس. رفعت علبة لحم الخنزير المقطع تقطيعًا ناعمًا ثم غيرت مكان كرتونة البيض. ازداد خفقان قلبي فاتقدت وجنتاي، وبذلت محاولة مضنية كي أتنفس أنفاسًا منتظمة. ثم استجمعت شتات نفسي، ومررت على منزلها مرورًا خاطفًا، ثم أدرت رأسي في اللحظة المناسبة تمامًا لألقي بنظرة خاطفة إلى الداخل. لا أعرف ماذا كنت آمل أن أرى، لكنها كانت تجلس على حافة مقعد جلسة جانبية

المقطع وتحدق ساهمة في الفضاء، ربما على بعد أربعة أمتار مني. كان وجهها كقناع بلا حياة ولم أرَ دموعها حتى حدقت بعينين نصف مغمضتين وإذ بها تتساقط مثل قطرات حبر على نسيج قماش البلُوزَة الأحمر.

ما زالت حالة الإثارة يتردد صداها بداخلي كهزة ارتدادية حادة بينما كنت أغلق باب شقتي ورائي. وشعرت كما لو كنت قد اكتشفت سرًّا وكنت أتطلع إلى مشاركته مع شخص آخر وكأني حظيت بهدية رائعة ولكنها محرمة. كان جسدي يصدر أصواتًا كصوت النقر على الوتر. ومرارًا وتكرارًا رأيت في خيالي فَمَ «أجاتا» المفتوح وبلوزتها الضيقة المحكمة على جسدها النحيل. وللحظة استسلمت لحالة من النشوة.

ثم فتحت عيني مرة أخرى. هذا مستحيل. كانت «أجاتا» مريضتي، وكنت أنا طبيبها، وكانت مهمتي مساعدتها! وقبضت بحزم على معطفي وخرجت مهرولًا كي أعود إلى الغسق.

كان الهواء على ضفاف البحيرة يشبه الدُّش البارد الذي كنت في أمس الحاجة إليه. وعندما أكملت دورة واحدة، كانت حالة الإثارة التي انتابتني قد تلاشت، وأدركني الإعياء، وأخذت أعرج وأنا أجتاز آخر مرحلة إلى المنزل حاملًا تَصْوِيرَة باكية لـ«أجاتا» كانت قد تيبست على شبكية عينيّ.

# أصم وأبكم وأعمى

أضحت الظهيرة مساء، وتراجع عدد المرضى من مئتين وخمسة وسبعين مريضًا إلى مئتين وستة وستينًا. وعندما خرجت أخيرًا من العيادة بعد بضعة أيام كانت الشمس معلقة فوق الأسطح على ارتفاع منخفض. وبخلاف نَقْر عصاي المنتظم على الأرض كان الصوت الوحيد المسموع هو شَقشَقَة العصافير. ومن آن لآخر كان يلفت انتباهي أثناء مروري كُنْيَة مدونة على أحد صناديق البريد، ولكن قَلّمَا كنت أتعرف على أي منها. وبالنظر إلى عدد سكان المدينة الذين تحدثت معهم على مر السنين، فإن عدد الذين قابلتهم خارج المكتب يعتبر قليلًا بصورة مدهشة. وفي بعض الأحيان كان يخطر ببالي أنني قد أكون قد اختلقتهم جميعًا؛ حتى السيدة «سورجو» التي بمجرد أن خرجت من العيادة إلى أرض الواقع حتى أرسلت لي إخطارًا بمرضها.

كان المنعطف الأخير هو الأصعب دائمًا، وكنت سعيدًا لأنني وصلت إلى المنزل رقم 9. وبينما اصطدمت يدي بالمفتاح في جيب معطفي لاحظت، بطرف عيني، حركة. لقد كان جاري، فاستحوذت عليّ رغبة شيطانية تدعوني لملاحقته وإخراجه من خيالي لأخلق منه إنسانًا من لحم ودم رفعت قبعتي وهتفت: "مساء الخير أيها الجار!".

كان يقف في وضعية جانبية ولم يرد على تحيتي. قام بفتح

صندوق البريد، وأخرج رسالة ثم أغلقه مرة أخرى. ثم استدار ليمشي عائدًا إلى حديقته وعندها فقط رفع عينيه ولمحني. فأومأ بأدب.

وبذلت محاولة أخرى وقلت: "مساء الخير، أيها الجار".

ابتسم وأومأ مرة أخرى فدفعت نفسي فجأة واتخذت خطوة إلى الأمام وقلت: "إنه لأمر مضحك حقًّا أن يعيش شخصان على مقربة شديدة بعضهما من بعض ولا يفصل بينهما سوى جدار ولا يعرفان عن بعضهما إلا أقل القليل، ألا تعتقد ذلك؟".

هز الرجل كتفيه معتذرًا، مشيرًا إلى أذنيه أوّلًا ثم إلى فمه، وهز رأسه فشعرت بشيء داخلي يهوي وبرَجّة في بطني ولم تعد ساقاي تحملاني. كان الرجل أصم. لم يكن لديه أي فكرة عن وجودي.

استدرت بَغْتَةً وهرولت إلى ممر الحديقة ثم إلى باب بيتي الأمامي، وأغلقته بعنف خلفي فأحدث صوتًا مدويًّا. شعرت بضغط خلف عيني، وانهرت على كرسي في المطبخ. أدركت بعد ذلك بكثير أن العصا ما زالت في يدي وما زلت أرتدي معطفي..

# زيارة

سحبت الجاذبية زوايا فمي في اتجاه الأرض وأنا أقوم يتحويل ملفات الحالات المرضية إلى كومة من الرسومات والكلمات المكتوبة بشكل عشوائي ومشيت إلى غرفة الانتظار وأنا أعرج. كنت أرسم بشرتي وهي تتدلى أكثر فأكثر إلى الأسفل حتى أن خديّ ناولا السجادة صفعتين متعبتين. وقد مشيت رأسًا إلى الطاولة الكبيرة قبل أن يقع بصري عليها. ومثل الاستنساخ الغامض لامرأة حكمت ذات يوم من على نفس المقعد، جلست المرأة تحت النافذة. توقفت أمامها ولا تزال الملفات مكدسة بين ذراعي، غير متيقن مما يجب عليّ فعله بعد ذلك.

وأخيرًا مددت يدي نحو كتفها وغمغمت.

"ماذا تفعلين هنا؟".

كان صوتي أجش جدًّا، وعاليًا جدًّا إلا أنها لم تسمعني على الإطلاق. بدا الأمر وكأنها تتحدث مع نفسها.

ومن دون أن تنظر إليَّ قالت: "لقد ظل بالمنزل ثلاثة وثلاثين يومًا حتى الآن، وهو مريض جدًّا. إنه يحتضر أمام عيني".

من الواضح أنني لم أكن الوحيد الذي يقوم بالعد.

سألتها بحذر: "هل السيد «سورجو» مريض؟".

نظرت إليَّ في النهاية وعلى محياها تعبير لم أره من قبل، واندفعت قائلة: "لا يمكنني تحمل المزيد! وأسوأ ما في الموضوع أننا لا نستطيع حتى التحدث عن الأمر".

ارتجف صوتها وتابعت: "إن «توماس» مذعور. بوسعي أن أرى ذلك، لكنه لن يقول أي شيء. في العادة كان بوسعنا التحدث عن كل شيء!".

قلت وأنا أشعر بكره لنفسي بسبب عجزي: "أنا آسف لسماع ذلك يا سيدتي".

وتابعت قائلًا: "يجب أن تخبريني إذا كان هناك أي شيء بوسعي القيام به من أجلك".

ومن الواضح أن تلك الكلمات الجوفاء التي خرجت مني جسدت كل التشجيع الذي كانت في حاجة إليه.

فاندفعت تقول بِإِلْحَاف: "هلا تحدثت معه، أرجوك؟".

هززت رأسي في ارتباك ثم قلت: "ولكن، يا سيدتي، كيف سيساعده ذلك؟".

قالت: "أعتقد أن التحدث مع أحد سوف يفيده، لكننا لسنا متدينين وهو لا يحب طبيبه".

قلت: " نعم، ولكن..".

قاطعتني قائلة: "أنا لا أنام في الليل لأنني أخشى أن أستيقظ فأجده ميتًا. لن أستطيع أن أتحمل أن يموت بهذه

الطريقة. لقد وضعت مرتبتي في غرفته، وأستلقي عليها وأنا أنصت إلى أنفاسه طوال الليل".

قلت: "سيدتي، من فضلك".

كنت أحاول مرة أخرى. وما أردت أن أقوله حقًّا هو أنني ليس لدي أدنى فكرة عن الطريقة التي يمكنني التحدث بها مع مخلوق آخر خارج جدران مكتبي الأربعة. لقد مضى وقت طويل منذ أن أجريت محادثة عادية مع أي أحد ويؤلمني التفكير في ذلك. بمعنى آخر، كنت عاجزًا، وكم كان سخفًا منها أن تلجأ إليَّ في مثل هذا الموقف بهذه الطريقة وهو شيء كان صادمًا بالنسبة لي. ومع ذلك فما هو متوقع مني كان واضحًا.

فقلت: "بالطبع سأتحدث إلى «توماس». سوف أمر عليه في غضون الأيام القليلة القادمة".

قالت: "شكرًا جزيلًا لك يا سيدي!".

استرخت عضلات وجهها المتوترة وضمت يدي بين يديها للحظة.

بعد أن غادرت السيدة «سورجو»، غلبني القلق. وقفت لفترة طويلة في الحَمّام وأسندت جبهتي إلى الحائط البارد، وتركت الماء يتدفق على يدي. وأخذت أتنفس ببطء وأنا أركز على منع أفكاري من الاسترسال راجيًا جسدي أن يثبت.

وأكثر شيء أردته هو أن أدير ظهري إلى كل شيء، وأن أزحف مرة أخرى عائدًا إلى روتيني اليومي المعتاد، وأنسى كل شيء عن الرجل الذي يحتضر، وأن أعود ببساطة للعد: 291، 290، 289 حتى لو كنت أدرك أن ذلك من المستحيل. هناك شخص كنت مُتَعَلّقًا به بطريقتي الخرقاء قد لجأ إليَّ وطلب مساعدتي. وإذا لم أبذل محاولة على الأقل، فما قيمتي إِذًا؟

# التائه

في تلك الليلة، ظللت مستيقظًا لفترة طويلة في غرفة النوم، وكان المرئي بالنسبة لي هو الميل الزَّاوي لخزانة الملابس والتوهج المنبثق من النافذة ليس إلا. في البداية فكرت في السيدة «سورجو» وهي تنصت بقلق ولهفة إلى أنفاس زوجها، وفكرت في ما تخيلت أن بوسعي أن أقوم به حياله. ثم بدأت أتساءل، مع تزايد بَقْبَقَة الطيور في الحديقة، عما إذا كنت سأقاوم الموت في اليوم الذي سيحضر فيه ليأخذني.

ومع دقات المُنَبِّه، تم اختزالي إلى سلسلة من الإجراءات الروتينية التي قمت بتنفيذها بشكل أخرق. استيقظت، سخنت الماء للشاي وأخرجت الحليب من الثلاجة كعادتي، لكن القلق لم يتلاشَ. ومع ذلك، تناولت القليل من الخبز وأخذت دُشًّا طويلًا بشكل غير اعتيادي قبل أن أحضر قميصًا نظيفًا من كومة القمصان المتطابقة التي تحمل ماركة «لا تايلور» المسجَّلة.

بعد ذلك انطلقت وأنا منهك إلى عيادتي التي تتزايد حالتها الرثة شَيْئًا فَشَيْئًا.

عقدت الجلسات بشق الأنفس. وجعلتني قصة السيدة «بري» عن لامبالاة والدتها الدفينة أشعر بدموعي تغالبني، تنشقت وسعلت عدة مرات فسألتني أخيرًا عما إذا كنت قد

أصبت بنزلة برد. ومع احتشاد القلق والاضطراب وشيء يشبه الحزن في صدري بدأت أشك في إمكانية استمرار يوم كامل من هذه المعاناة البشرية المكثفة.

وقبل أن تغادر، صافحتني السيدة «بري» وقالت: "يمكن أن ينتهي بك الحال إلى أن تتحول إلى مخلوق ضئيل للغاية إذا لم يهتم بك أحد. وأحيانًا أتساءل ما إذا كان مثل هذا المخلوق يُعد إنسانًا بالمرة".

كانت مريضتي التالية هي «سيلفا» البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، إلا أنها تخلفت عن الحضور. كان يندر أن يفوِّت المرضى أي جلسة، إلا أنني بصراحة لم أكن أدري ما إذا كانت قد حاولت إلغاء موعدها أم لا، فلم يكن لدي سكرتيرة لتتلقى الرسالة. وبالنظر إلى الجلسات التي عقدت في الساعات القليلة الأولى، كان ينبغي أن أتنفس الصعداء ولكنني شعرت بدلًا من ذلك بذعر متزايد: فالإلغاء أجبرني على العودة إلى نفسي حيث وجدت أن كل ما أرغب فيه هو أن أوَلِّي الأَدْبَار. وحاربت سحابة من الأفكار المربكة التي تحاول أن تفسح لنفسها مكانًا في رأسي. ماذا ستقول السيدة «سورجو» عندما أحاول التحدث مع زوجها ويتضح أن ذلك لن يفيده؟ كيف بوسعك أن تساعد شخصًا غريبًا على أن يموت موتًا رحيمًا وأنت لا تستطيع حتى أن تعرف كيف تعيش حياتك؟

وكي أقطع حبل أفكاري نهضت ومشيت إلى منطقة

الاستقبال. وهناك أخذت أتجول بلا هوادة ذهابًا وإيابًا، وقمت بترتيب بعض المجلات، وأخذت أحدق عبر النافذة إلى أحد أحواض العشب المربعة، ثم إلى الباب الرئيس ثم إلى الشارع لمعرفة ما إذا كانت مريضتي في طريقها إليَّ أم لا غير أن «سيلفا» لم تكن هنا. ولم يكن هناك شعور بالسلام فقد شعرت بأن حالي من سيئ إلى أسوأ. إن بشرتي مشدودة حولي مثل شبكة، ففتحت فمي وأغلقته، وحركت كتفي حركة مُمَوجة وجعلت عمودي الفقري مستقيمًا، ولكن لم يكن هناك ببساطة مساحة كافية في جسدي. وانتابتني حالة من الانزعاج فأمسكت بعصاي وفررت إلى الخارج إلى حيث أشعة الشمس.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب، إنني لا أستطيع البقاء في مكاني وحسب، لذا استدرت إلى اليسار وهرولت بخفة في الشارع. لم أر شيئًا، ثم جريت متثاقلًا على الطريق، وأخذت أستنشق الهواء في جرعات. وظلت الصور المربكة تروح وتجيء: جلد «أجاتا» الناعم على نسيج الأريكة الأخضر، وأنا وحدي في المنزل بجوار النافذة، والسيدة «سورجو» وزوجها «توماس» وقد لفا ذراعيهما بعضهما حول بعض. في بعض الأحيان كنت أمشي مارًّا بعربات أطفال على الرصيف والتي كانت لا بدّ أن ترتج وهي تتراجع إلى الخلف حتى لا ترتطم بي، وبالكاد كنت ألتفت إليهم. لقد كنت أركز بشدة على إبقاء نفسي منتصبًا. وعندما سقطت أخيرًا على

الطريق لم أدر أين أنا.

التقطت أنفاسي بالتدريج، وأدركت أنني يجب أُن أترك العصا تسقط. ألقيت نظرة خاطفة وأنا حائر. وجدت نفسي جالسًا على حافة منصة علم يرفرف خفاقًا يطل على حديقة أمامية بدا أنها موضع عناية فائقة. استغرقت بضع دقائق حتى شعرت بالتعافي، فنهضت بحذر ووقفت على قدمي، واستندت إلى الحجر البارد. لا يزال جسدي يعمل على الرغم من أن ساقيّ ترتجفان من تحتي، وطاقتي قد استنزفت.

وبينما كنت أتأرجح ببطء في الشارع، بدأ مجال رؤيتي يتسع مرة أخرى وهو ما جعل العالم يعود إليّ مجددًا. كم أنا أبله! هكذا وبخت نفسي؛ لماذا أنا غاضب كل هذا الغضب؟ وفي الوقت نفسه، أدركت أن الشيء نفسه قد يحدث غدًا مرة ثانية، وسأقف عاجزًا عن منعه.

وجدت عصاي ملقاة في نهاية الطريق، وبعد ذلك بوقت قصير تعرفت أخيرًا على أحد الشوارع. ومن هناك عُدت إلى العيادة وكان طريقًا أبعد من المعتاد وكان بطني يقرقر. لقد أبليت بلاءً حَسَنًا خلال الاستشارات الثلاث الأخيرة التي عقدتها اليوم. وجلست في مقعدي وأنا أرتعش ومنهك حتى الموت، بينما تيبس قميصي على جسدي كالورق المقوى المعجون بالغراء. كانت الكلمات الوحيدة التي نطقت بها اليوم: طاب يومك ووداعًا.

وفي نهاية اليوم وبمجرد أن فتحت السيدة «ماوراسمو» المذعورة كعادتها الباب وأغلقته ثلاث مرات كان اليوم قد انتهى فأرسلتُ زفيرًا كاملًا لأول مرة منذ ساعات. كان الغثيان ينتظرني، متدفقًا وقابضًا. وما أحبطني بشدة أنني اضطررت أن أمشي مترنحًا إلى الحَمّام وتقيأت.

# جلسة «أجاتا» السابعة

قالت: "أعتقد أنني كنت غاضبة. لا، بل أعلم أنني كنت كذلك. وبالعودة للوراء أجد أنني لم أكن أجرؤ على أن أشعر بذلك الغضب. فقد توقفت عن الغناء، وقلما كنت ألمس البيانو، وتزامن ذلك مع الوقت الذي بدأت فيه أقطع رسغي".

ومن مقعدي إلى الخلف منها كان بوسعي أن أرى الاستدارة الناعمة في وجنتيها، وكذلك شبكة التجاعيد الدقيقة المشدودة حول عينيها.

قالت: "أنا لا أعرف لماذا أقول ذلك على هذا النحو. ما رأيك يا دكتور؟ هل يمكن للمرء استبدال البيانو بجروح صغيرة في الرسغ يقطعها بسكين تقشير؟".

تسلل الضحك إلى صوتها خلسة.

أجبت: "حَسَنًا، لم لا؟ فكري فقط في كل الفن الذي خرج للنور عبر المعاناة، التَّسَامي".

كانت ترتدي تنورة واسعة لونها أخضر داكن وعليها بلوزة رمادية. وحذاء غامق بكعب صغير، يبرز جزء منه فوق حافة الأريكة. تميل بقدميها يَمْنَةً ويَسْرةً.

قالت: "هذا الأمر بدأ من هنا على أي حال. فمنذ ذلك الحين، أخذت أجرح نفسي وأشد شعري، وأضرب نفسي

بأشياء مختلفة وأخبط رأسي في الحائط حتى تسيل دمائي. ويمكنني أن أؤكد لك أن ذلك يفيدني أكثر من الأقراص المخدرة والمُنوّمة!".

قلت: "قد يكون الأمر كذلك، ولكنه يعمل على إغراق الألم وغمره لا على إزالته. كفّي عن التظاهر بأنكِ تقومين بحل أي شيء حلًّا فعليًّا بضرب رأسك في الحائط يا «أجاتا»، أنت فقط تعاقبين نفسك على شيء لم ترتكبيه".

وشعرت بالضيق لأن ما قلته بدا كلامًا عفا عليه الزمن جدًّا، وعندما اتسعت ابتسامتها كنت على يقين من أنها كانت تسخر مني.

قالت: "نعم، أنت على حق يا دكتور. فأنت تقترح إذًا أن أتوقف، أليس كذلك؟ يا له من شيء مبتكر".

فأجبت دونما تفكير: "خبريني، هل هذا يبدو لك مَزْحة؟".

أجابت بحدة: "يمكنني أن أعدك أنها لن تكون كذلك. إنني أشعر بأني أدفن وأنا حية! فقد يظن المرء أن بوسعه أن يرى في شنق امرأة مدانة مجرد مَزْحة".

انحنيت نحوها وقلت: "ولكن ما الخطأ الذي اقترفتِه يا «أجاتا»؟ لماذا أنتِ غاضبة من نفسك لهذا الحد؟".

لعقت لسانها وقالت: "هل كلفتَ نفسك عناء الإنصات

إليَّ من قبل يا دكتور؟".

قلت: "نعم أظن ذلك. ولكن استرسلي دون تكلف، اشرحي لي حتى أفهم".

أخذتْ شهيقًا مسموعًا ثم نفخته إلى الأعلى فطارت خصلات شعرها القصيرة التي تتدلى على جبينها.

عاد صوتها إلى إيقاعه الطبيعي وهي تقول: "أنا غاضبة لأنني لم أنجز أي شيء في حياتي. كان يجب أن أكون شخصًا آخر، فأنا لا شيء".

وللمرة الأولى خلال جلساتنا، غشيت النداوة عينيها وتجمعت ثم تلاقت لتشكل دمعة جرت على خدها واستمرت تجري حتى بلغت حلقها الأبيض. كان عليّ أن أصغي باهتمام جَم وأنا أتتبع المحادثة حتى لا تختلط كل صور «أجاتا» التي انطبعت في ذهني.

قالت: "أعتذر إذا كان هذا شيئًا تافهًا. أنا متأكدة من أنك سمعت ذلك من قبل. لكنني كنت أعتقد أنني شيء استثنائي حقًّا".

أجبتها: "وما زلتِ كذلك، على الأقل من أحد الجوانب. وإلا لما كنتِ غاضبة جدًّا هكذا، رغم ذلك؟".

قالت وهي تزيح الدموع بظهر كفها: "ماذا تعني؟".

أجبت: "أعني أنكِ تشعرين بأنكِ فريدة من نوعك تمامًا

ولكنك في الوقت نفسه تجدين نفسك لا تمتين للسياق بأي صلة".

أومأت ببطء وقالت: "أظن أنك على حق. ففي لحظة أجد نفسي أفكر في أنني لا أستحق أن أعيش ثانية واحدة، وفي اللحظة التي تليها أجد أن لا أحد يفوقني. هذا سخف، أليس كذلك؟".

# أين يكون الموت؟

وفي النهاية لم أستطع إرجاء الأمر لفترة أطول. إن الوعكة التي ألمت بي في اليوم أو اليومين الماضيين قد أفسحت المجال كي ينتابني شعور بالزيف وأنا أقترب من المنزل. ما الذي ورطت نفسي فيه؟

استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تفتح السيدة «سورجو» الباب.

قالت: "مساء الخير يا سيد. إنه لطف منك أن تزورنا. تفضل".

ثم فتحت الباب على مصراعيه وتنحت جانبًا. لقد تَفَكّكت أجزاء وجهها وتم ترقيعها بأسلوب يشوبه التكلف، وجعلني المنظر أرغب في أن أدور على عقبي، وأفر فَزَعًا إلى ممشى الحديقة ثم أثب إلى الحافلة التي جئت بها حيث تفوح رائحة العرق. وبدلًا من ذلك، تجاوزت العتبة، وتعثرت تقريبًا في شيء بدا وكأنه مِنْوَل. وحبست صيحة دهشة كادت أن تخرج مني. كانت هناك أشياء في كل مكان!

قالت: "هنا، دعني أساعدك".

وضعت السيدة «سورجو» عصاي في حامل به ما لا يقل عن عشر مظلات ذات ظلال ألوان متنوعة ثم طوت معطفي ووضعته فوق كومة من الصحف، بينما حاولت أنا العثور

على مكان لقبعتي. لم يسبق لي أن رأيت بمنزل واحد أزواج أحذية، وأباريق، وصنارات الصيد، ودوارق الماء تم تجميعها بمثل هذه الكثرة.

قالت السيدة «سورجو» وهي تقودني إلى قاعة ضيقة: "من هنا. أظن أنه مستيقظ بالفعل، ولكن إذا لم يكن، فيستحسن إيقاظه".

توقفت خارج مكان لا بدّ أنه حُجْرَةُ تمْرِيض.

أومأت.

قالت السيدة «سورجو» وهي تواصل عبور الردهة: "سأكون في الدور السفلي إذا احتجت أي شيء".

تستمر في عبور الردهة.

هتفت من خلفها: "انتظري. ما خطبه؟".

استدارت ونظرت في عيني مباشرة وقالت: "مريض بالسرطان".

ثم اختفت في المطبخ، وتركتني خارج الباب الذي كان حارس الموت خلفه.

طرقت الباب بحرص ودخلت. كان يرقد في سرير مزدوج في منتصف الغرفة، وبرز وجهه فقط من فوق حافة اللِّحَاف. وفي ما بين حاجبيه غزيري الشعر كانت هناك جَعْدة عميقة وكأنها نُحتت بأزميل. وبينما كنت أدنو من

هذا التعبير المُعَذّب المرسوم على وجهه قام باستبداله بابتسامة ودودة وقال: "مساء الخير، يا دكتور، تفضل".

كان هناك مقعد بذراعين في الزاوية، فقمت بدفعه إلى رأس السرير. كان المقعد منخفضًا وفي النهاية اضطررت إلى أن أترك نفسي لأسقط فوقه. وفكرت أنه قد يحدث ذات مرة أن أظل حيثما جلست وألا أنهض من مكاني مرة أخرى أبدًا، هكذا ببساطة. وقد يحدث ذلك وأنا جالس على مقعد بجوار نافذة بالمنزل أو فوق دَكّة على ضفة البحيرة بينما ينام البجع من حولي.

سألت: "كيف حالك اليوم يا سيد «سورجو»؟".

أجاب: "شكرًا لك، لقد تحسنت، إنه لطف منك أن تأتي. أعتقد أن زوجتي العزيزة قد فاض بها الكيل مني".

كان رأسه غارقًا في الوسادة البيضاء، ورائحة المرض النتنة تندس مباشرة بين روائح أغطية السرير النظيفة. لم أقل شيئًا، لأنني لم أكن أعرف ماذا أقول.

تابع وهو يغمغم: "نادني بـ« توماس»، يا دكتور. فأنا لن أتصنع الكلمات الآن، على الرغم من أننا لا نعرف بعضنا بعضًا جيدًا. لقد أصبحت عبئًا على زوجتي، ولا أريد أن أعوق حركتها بمخاوفي. والحقيقة أنني أشعر بالرعب".

كان يتلعثم ويأخذ شهيقًا ثم يقول جملة وبعدها يرسل زفيرًا، ويأخذ شهيقًا مرة أخرى ويرسل زفيرًا آخر.

جربت أن أقول: "أنا متأكد من أنك لست عبئًا عليها".

إلا أن« توماس» لم يجب، وكان التقيد بالصمت شبه مستحيل. كنت أعرف ذلك، هكذا فكرت؛ أنا لا أجيد التصرف في ما أنا فيه الآن!

ومن على الوسادة قال: "هل تعرف الموت؟".

قطبت جبيني. وجربت ثانية وقلت: "ألا نعرفه جميعًا؟".

كان بوسعي أن أسمع كم يبدو كلامي أجوف.

جربت مرة أخرى وقلت: "على مر السنين تحدثت إلى مرضى كُثر ممن يعانون من مرض خطير أو كانوا يعيشون بالقرب من شخص أخذه الموت".

إلا أن ما قلته جاء أسوأ من سابقه تقريبًا.

وفي نهاية الأمر هززت رأسي وقلت: "لا. أنا لا أعرف الموت".

ابتسم «توماس» وأومأ بضع مرات ثم قال: "بلى، كما ترى، لا أحد يعرفه قبل أن يذهب إليه هناك. هذه حقيقة".

تحرك فكّاه تحت لحيته الخفيفة التي لم تحلق منذ أيام وجلده الرمادي كما لو كان يمضغ. تعجبت للحظة فسرعان ما سأصبح مثله. ما زالت هناك بقع داكنة سوداء في شعري الأشيب، لكن هذا لن يدوم طويلًا إذا أصبت بمرض عُضال.

إنه فقد نحو عشرة كيلوجرامات من العضلات المتنوعة والدهون دون أي عناء.

قال: "كل ليلة أستلقي هنا أستمع إلى أنفاس زوجتي، وأفكر،كيف سأتركها؟".

وعلى الأرض إلى يمينه، كانت هناك مرتبة مصنوعة من الوسائد ولِحَاف. وعلى طاولة السرير إلى يساره، حيث كنت أجلس، كان هناك مصباح وكوب من الماء وصحن مليء بالماء وعلبة حلوى النَعْنَاع. كل هذا، إذًا، كان علاج الموت.

قلت: "كي أكون صادقًا، لست أدري كيف يمكنني مساعدتك يا «توماس»، فأنا لم أحب أحدًا قط".

اندهشت من الكلمات التي نطقت بها على حين غرة إلا أن «توماس» اكتفى بأن قال: "لا، فحسن الحظ لا يصيب الجميع. وقد يكون الوقت الذي تقضيه مع الموت أهْوَن".

قلت معترفًا: "وقد يكون أشق أوقات الحياة".

ضحك وكانت ضحكته مثل صخرة تهوي فوق صخرة.

ثم غمغم قائلًا: "قد تكون مصيبًا".

وهنا اسْتَحالَت ضحكته إلى سعال.

ثم قال: "إن الحياة دون حب لا تساوي الكثير".

تبادلنا ابتسامتين، وجلسنا لفترة من الوقت في صمت قبل أن أسأل: "أنت قلت إنك خائف، أليس كذلك؟".

ابتسم مرة أخرى، ولكن هذه المرة بعيني وقال: "إنني مذعور للغاية! وشيء لطيف أن أقول ذلك جَهْرًا".

قلت معترفًا: "وأنا أيضًا خائف، كما تعرف. ولم أتمكن من استنباط الأسباب".

قال: "أعتقد أن أسوأ شيء هو ألا أرى وجه زوجتي مرة أخرى وأن أضطر إلى الذهاب إلى مكان هي ليست فيه".

وبطريقة أو بأخرى فهمت ماذا كان يقصد بالضبط.

قلت: "ربما ليست هي الشخص الذي ينبغي عليك تركه. ربما يكون كل شيء آخر؟".

لم أكن متأكدًا مما إذا كان ذلك منطقيًا أم لا، إلا أن «توماس» مد يده وتناول يدي بين يديه كما فعلت زوجته قبل بضعة أيام.

قال: "هذا صحيح".

شعرت به يحكم قبضته على يدي ويضغط عليها بوهن.

ثم قال: "لا يمكنني أن أتركها أبدًا لكن الباقي، لعل وعسى".

خفف قبضته على يدي، وانخرط في نوبة أخرى مضاعفة

من السعال الجاف. مررت له الماء وتناول بضع رَشَفَات.

قال بصوت أجش وهو يتكئ على الوسادة: "أتمنى أن تكتشف ما الذي تخاف منه. أي شيء آخر سيكون مَضْيَعَة مخيفة للوقت".

نظرت إليه وارتجفت. ألم يكن الأمر كله حتى الآن مَضْيَعَة للوقت؟ أو قل معظمه؟

ورغم ذلك سألت: "كيف تكتشف ما الذي تخاف منه؟".

أجاب «توماس» وهو يطبق عينيه: "حسب تجربتي، ابدأ بأكثر شيء تتشوق إليه".

# جلسة «أجاتا» الثامنة

قالت: "كان الناس يقولون إنني أشبه أبي، وكان هذا يروق له. أعتقد أنه كان فخورًا بأنه أنجب طفلة رغم إعاقته، لذلك أصبحت عنده مثل شيء يشبه النصب التذكاري. اعزفي، يا« أجاتا»، اعزفي!".

تلفظت تلك الكلمات بسخرية واستهزاء.

سألت: "هل أنتِ موهوبة؟".

وبالطبع كانت كذلك.

أجابت: "لم يقولا لي أبدًا إنني أعزف عزفًا رائعًا. لقد سمعتهما يقولان ذلك للآخرين عندما كانا يظنان أنني لا أسمعهما. لكن نعم، لقد كنت موهوبة جدًّا".

قلت: "ألم يسعدك هذا؟".

فنظرت إلى أصابعها النحيلة وتخيلتها وهي تمشط مفاتيح البيانو وكأنها تحاول أن تجبر نفسها على أن ترتكب خطأ في العزف.

وفجأة تذكرت اليوم الذي أدركت فيه أنني أيضًا كنت أعزف الكَمان إكرامًا لأبي فقط لا غير. لقد تدربت على وجه الحصر حتى لا أخيب أمله، وما كنت أشعر به عندما أقوم بعزف مقطوعة موسيقية بشكل طيب كان مجرد شعور بالراحة لا أكثر.

هزت«أجاتا» رأسها.

قالت: "لا، لقد كرهته. كرهت البيانو، وكرهت سماعهم يتحدثون عني. وحقيقة الأمر أنهما أرادا فقط أن يستعرضا أمام الآخرين كم كانا أبوين صالحين. لا حيلة لي في ذلك".

وبالأَحْرَى، كان وقت الجلسة قد انتهى، إلا أن قلبي لم يطاوعني أن أقاطعها. وما أردته حقًّا هو أن أبقى هنا مع «أجاتا» وأن أترك المريض التالي ينتظر، وأن أظل أنظر إلى بشرتها البيضاء وأتخيل كيف سيكون ملمسها تحت كفّي؛ وأن أطرح سؤالًا وأن أدرك أنه يمكنني أن أجعلها في حالة طيبة إذا استخدمت الكلمات الصحيحة.

ومع ذلك، لا بدّ أنها استشعرت شيئًا من الحَلْحَلَة رغم أنني لم أتحرك ولم أتحدث. ولكنها استقامت في جلستها وكان شعرها أشعث ومُبلَّلًا كشعر طفل استيقظ لتوه من نوم عميق.

قالت: "أعتقد أن هذا كل ما لدينا اليوم، يا دكتور. سأراك يوم الثلاثاء".

ثم رمتني بابتسامة بدت كأنها عَبُوس.

أومأت برأسي وقلت: "دعيني أقول إِذًا إن هذا من دواعي سروري يا «أجاتا »".

استقرت يدها في يدي لحظة، ثم خرجت من المكتب. فجلست على الأريكة التي كانت دافئة من أثر جسدها، وأخذت نفسًا طويلًا ومبهجًا. ثم استدعيت السيدة «كارمايلة» إلى الداخل وحاولت إقناع نفسي بأنها لا تقل أهمية عن «أجاتا».

# ثلج

وذات يوم استيقظت لأجد غِلاَلَة بيضاء رقيقة فوق المدينة. لطالما أحببت الشتاء بأصواته الصامتة البكماء، وبدلًا من أشعة الشمس سوف يسقط عليَّ الثلج في أي يوم من أيام الأسبوع. هذه المرة جاء الثلج على نحو فجائي، تمامًا كما يدور الربيع في فلك الصيف ويحاذيه، وهذا لم يزِدني إلا تقديرًا له.

كشفت الثلوج عن عالم مُسْتَتِر من آثار الأقدام وكفوف الكلاب والأحذية طويلة الرقبة وأقدام الأطفال الصغار التي كانت إما أن تنحرف عن الطريق الرئيس في اتجاه المدرسة أو تواصل المسير حتى تتجاوز العيادة إلى الأمام في اتجاه وسط المدينة.

وبالمكتب حيث تراكم الغبار والذباب الميت على أعتاب النوافذ، عقدت الجلسات الأولى لهذا اليوم. ولعنت من صميم قلبي كل الأشياء التي ابتلى بها مرضاي، ولا حيلة لي فيها. كان هناك زِيجات تجتاحها مشاعر فاترة ولمغالبة ذلك كان هناك زجاجات نبيذ خلف الأرفف من أجل المقاومة، فما هو القدر المتوقع من العلاج حقيقة إذا كنت لا أملك إلا بضع ساعات في الأسبوع لبناء ما أفنى فيه مرضاي أعمارهم وهم يتمزقون؟

وصلت السيدة «ألميدا». وبدأت تتحدث ثم أخذت تضرب

رأسها بالوسادة، وتساءلت عما إذا كانت ستلاحظ أنني كنت أموت ببطء من شدة الملل وأنا جالس في المقعد الذي خلفها. وفكرت في أنه في الوقت الذي أوشكت فيه السيدة «سورجو» على فقدان زوجها استحوذ على هذه الأنثى المخيفة هوس خلاصته أن هناك من احتال عليها كي تدفع عشرة سنتات إضافية على ثمن القفازات التي اشترتها!

ومن ثم فقد أفرزت هذه الفكرة توبيخًا لاذعًا في حلقي لمريضتي فقاطعتها قائلًا: "سيدتي، لا بدَّ أن يتوقف هذا".

يحدث أحيانًا أن يفاجئ الرجل نفسه، وكانت هذه مرة من تلك المرات.

قلت: "أنتِ تقضين وقت الجلسة كله تحكين كيف أنه لا فائدة تُرجى من الآخرين وأن لا خير فيهم، وهذا يدفعني للخروج عن شعوري! منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، كنتِ تشتكين من زوجك الكسول وتتجاهلين كل ما أقوله لك تمامًا. فدعينا ننهي هذا الأمر الآن!

رفعت السيدة «ألميدا» نفسها على مرفقيها بتثاقل ورمقتني بارتياب. كان الجلد المترهل تحت ذقنها يرتجف بوهن، واتسعت عيناها.

فقلت: "أعتقد أننا يجب أن نجري تجربة، يا سيدتي. من الواضح أنك لا تستفيدين كثيرًا من الحضور هنا لذلك أقترح تجربة شيء جديد. فحتى الأسبوع المقبل، وحتى نتقابل

مرة أخرى، أريدك أن تتجنبي أي استفزاز. يجب أن تخبري زوجك أن عليه أن يتولى مسؤولية الشؤون العملية لأنني قد أمرتك بأن تستريحي، وبعد ذلك أريدك أن تستمتعي بالطقس فَحسْب أو تقرئي كتابًا أو تفعلي أي شيء آخر تودين القيام به. اقضي بعض الوقت مع بعض الأصدقاء الودودين".

تمتمت السيدة «ألميدا» واللون الأحمر الأرجواني يضرب وجهها قائلة: "لكن «برنارد» لا يمكنه أن يطهو! لا يمكنه غسل أو كي الملابس، لا يستطيع «برنارد» عمل أي شيء!".

هززت كتفي لأن «برنارد» لا يعنيني في شيء.

واستجمعت أكبر قدر من التَلَطُّف وقلت: "لا يمكننا أن نعرف ذلك قبل أن يُمنح فرصة. إنها مجرد تجربة، وليس هناك نتيجة سيئة. ما عليك سوى بذل قصارى جهدك وسوف نقيم النتائج في المرة القادمة".

حدقتْ فيّ السيدة «ألميدا» لبضع ثوانٍ أخرى. وبدا كأنها كانت تحاول صياغة شيء تقوله لكنها لم تتمكن من العثور على الكلمات، لأن الواقع كان قد أفْلت من قبضتها. وفي إشارة إلى أن المحادثة انتهت نهضتُ من مقعدي، وتبعتني هي آلِيًّا إلى الباب.

قالت: "حَسَنًا، لم أسمع شيئًا من هذا القبيل طوال حياتي،

يا دكتور".

أخيرًا تمكنتُ من قول ذلك، وكنت مضطرًّا إلى كتم ابتسامة.

قلت: "أظن أننا بحاجة إلى إحداث تغيير يا سيدتي. ألا توافقين؟".

رمقتني بنظرة أخيرة مفعمة بالارتياب، وأمسكت حقيبتها بإحكام وضمتها إلى صدرها كما لو أنني كنت أحاول سرقة شيء منها، وغادرت المكتب في تنورتها الطويلة وهي تخطو خطوات قصيرة ومُخْتالة.

بعد رحيلها، تساءلت عما إذا كان من المحتمل أن أراها ثانية أبدًا إلا أن الشك في ذلك اعتراني. كانت في حاجة إلى شهود على استشهادها، وإلا فلا جدوى. وإذا لم تأتِ إلى هنا كي تتذمر، فإلى أين تذهب؟

مر اليوم، وكل ما كان علي فعله هو إغلاق العيادة. وبعدها جاء الخوف. تذبذب نبضي في جسدي كما لو كان شوكة رنانة في يد ملحن غاضب. ولو لم يكن ذلك قد حدث من قبل عدة مرات لاعتقدت يقينًا أنني أحتضر. اضطررت إلى أن أتمهل وأنا في طريقي من المكتب إلى غرفة الانتظار، وتوقفت عند مقاعد المرضى وأخذت أنفاسًا عميقة كي أستيقظ مرة أخرى للحظة لاحقة إلا أنني لم أستطع أن أتحمل أن أقف ساكنًا هكذا.

ورغم أن ساقيّ تئنان من تحتي فقد وجدت ملف السيدة «ألميدا» وأخيرًا مر نصف اليوم التالي وأنا أجر قدميّ، ثم انصرفت في وقت مبكر من المساء. وكانت بثور الثلج التي في رقة الورق ما زالت ترقع الأسطح، في حين ظهرت على الأرض المُخْضَلة امتدادات للونين الأسود والأخضر. وشقت الريح رئتيّ.

جف العرق ببطء فوق جِلْدِي. وأخذت أتجول عبر المدينة وأنا ممسك بعصاي ثم مشيت رأسًا مبتعدًا عن المنزل، وكنت على بعد أمتار قليلة من منزلها قبل أن أعود إلى نفسي وأدرك فعلتي. ليتني أستطيع إلقاء نظرة عليها فَحسْب. سوف أشعر بتحسن، إنني على يقين من ذلك. ليتني أستطيع أن أراها متواجدة. إلا أن «أجاتا» لم تكن هناك، وبدلًا منها كان هناك رجل نحيف ذو أوداج عالية، يجلس على طاولة الطعام يقرأ صحيفة.إنه «جوليان». شعرت بطعنة من الاشمئزاز. اللعنة! ماذا رأت فيه؟ لماذا تبقى مع رجل من الواضح أنه لا يسعدها؟ في تلك اللحظة نظرت إلى أعلى. وفي إحدى اللحظات التي طال أمدها، وجدت نفسي أحدق مباشرة في عينيه التي تشبه عيني سمكه شاحبة، والتي قد تكون، في الحقيقة، زرقاء وذلك قبل أن أنتزع نفسي من المشهد وأهرول عائدًا عبر المدينة وقد غمرني شعور هو مزيج من الإذلال والغضب.

## جلسة «أجاتا» التاسعة

سألتها: "ممَّ تخافين يا «أجاتا »؟".

قالت: "أوه، بالكاد أعرف. ممّ نخاف نحن جميعًا؟".

ثم أشاحت بيديها في يأس وقالت: "أعتقد أن الحياة نفسها أصبحت تمثل خطرًا. إنني أخاف أن أعزف الموسيقى، وأخاف أن أكف عن العزف، وأخاف أن أدنو من الناس، وأخاف أن أبتعد عن الناس. لا مكان لي في أي مكان!".

قلت: "لكن كان ينبغي عليك أن تجربي يا «أجاتا»، فمن أفعالنا تتشكل الحياة، وأنتِ لا تفعلين أي شيء".

تأوهتْ وبدلتْ جلستها في غضب وقالت: "لكنني لن أتأقلم مع الأمور إذا خرجت عن السيطرة مرة أخرى. فأنا حتى الآن لا ناقة لي فيها ولا جمل. إنها شيء لا يطاق".

جرفتني موجة غير متوقعة من التعاطف، واضطررت إلى مقاومة دافع داخلي يريدني أربت عليها.

فسألت بهدوء: "ولكن يا «أجاتا»، ما رأيك في الحياة؟".

قالت: "ماذا تعني؟".

قلت: "يبدو لي أنك تؤمنين بأن هناك صيغة ما للحياة

الحلوة، وطالما أنكِ لم تجديها، فقد تتوقفين تمامًا عن عيش الحياة. هل هذا صحيح؟".

استقامتْ في جلستها، وأخذتْ تفرك المقعد على جانبي ركبتيها.

قالت: "أعتقد أن الحياة قصيرة جدًّا وطويلة جدًّا في آن واحد. قصيرة جدًّا لدرجة أنها لا تكفي أن يتعلم المرء كيف ينبغي أن يعيش، وطويلة جدًّا لأن سرعان ما تصبح عُفونتها مرئيةً أكثر وأكثر مع كل يوم يمر".

كان صوتها مثل ترنيمة رتيبة. ومن الواضح أنها كانت تشعر بالكرب، لكنني لم أستطع أن أترك ضعفي في مواجهتها يقف في طريق العلاج.

فسألت بمثابرة: "كيف تعرفين أنكِ فاشلة؟".

هزتْ رأسها وتمتمتْ: "صدقني، هذا شيء يمكن ملاحظته".

قلت: "وبمن تقارنين نفسك؟".

قالت: "بالمرأة التي يجب أن أكونها".

حكتْ وجهها بقسوة بيديها وقالت: "أنا متعبة الآن، يا دكتور. سوف يتعين علينا تخطي هذا الأمر اليوم".

أغلقنا أعيننا. هل بدت غير سعيدة؟ أم كنت أقرأ نفسي فيها؟

تخيلت أنني أمد يدي لأربت على شعرها ورأيتها تميل نحوي فتمكنت من احتضانها حتى تلاشت كل مسافة تفصل بيننا واستطعت أن أهمس بأنني أفهمها لأنني كنت خائفًا مثلها وبنفس القدر.

بدلًا من ذلك قلنا وداعًا وتركتني جالسًا على المقعد. أخذت أعد خطواتها عبر الغرفة -مشت تسع خطوات بينما كنت أمشي أنا ثماني- وسمعت الباب الخارجي يغلق خلفها وكذلك طقطقة حلقة المقبض المعدنية.

وفي اليوم الذي تبقى لي فيه مئتا جلسة وجلستين وبعدها أحال إلى المعاش، استيقظت محمومًا ووجهي مُبقَّع باللون الأحمر ووجدت ملاءة السرير واللحاف قد تحولا إلى كتلة تنشع عرقًا ومحشورة في الحائط. وكان العد التنازلي يطاردني في أحلامي حيث أخذت أركض ذهابًا وإيابًا في ارتباك محاولًا إنقاذ جميع مرضاي وهم في الرمق الأخير. ولم يتزعزع شعوري بالإنهاك بغض النظر عن المدة التي وقفت فيها بالحمام. سينتهي كل شيء قريبًا، وماذا بعد ذلك؟ هل بذلت كل ما في طاقتي حقًّا كي أساعدهم؟

عندما وصلت إلى العيادة، توقفت للحظة في المدخل وقمت بقياس قطر الغرفة. ألم يكن هناك رائحة غريبة؟ رائحة خفيفة وكأنني قد نسيت شيئًا في الثلاجة، شيئًا غرق في بركة رطبة إلى الخلف، أو أنني لم أفرغ سلة المهملات؟ نادرًا ما كنت أنشغل بهذه الأمور كثيرًا، فالسيدة «سورجو» كانت معتادة على تنظيف وتغيير المنشفة في الحمام، وغالبًا ما كانت تشتري زهورًا وتقوم بتنسيقها في المزهريات حول المكان ومن دونها كانت العيادة تتَدَاعَى من حولي وتنهار ببطء ولكن بيقين.

تَبَادَل المرضى الأماكن على الأريكة بطريقة بدت وكأنها وفقًا لنمط مُلْتَبِس يصعب أن يتكهن به أحد مهما كان

منظوره صحيحًا. ووجدتني أفكر في «توماس». كان هناك نوع من المصارحة بيننا عندما التقينا لدرجة أنني تمنيت أن أتمكن من إرجاء الجلسات لموسم آخر. أجبرنا الموت، أو هكذا شعرنا، على تخطي سلسلة كاملة من المراحل والتوجه رأسًا إلى جوهر الأمور، ولكن ألا يمكن أن يتم ذلك دون وَسَاطَة الموت؟

بينما كانت السيدة «أوليف» تتأمل الحب كفكرة غامضة، واصلت أنا التأمل. قد لا يكون ممكنًا بناء علاقة أصيلة هنا في المكتب حيث يدفع شخص إلى شخص آخر مقابلًا كي يستمع إليه، وحيث كان المرضى، بحكم التعريف، مصابين بمرض وكنت أنا من يملك العلاج.

سمعت السيدة «أوليف» تصرخ قائلة: "لا أظن أن ما أشعر به تجاه زوجي هو حب حقيقي. على الرغم من أن كل واحد منا غالبًا يقول للآخر إنه يحبه. يقول المرء أشياء كثيرة".

غمغمت: "امم".

قالت: "من ناحية أخرى، فأنا أفضل أن أكون معه على أن أكون وحدي. لا بدَّ أن ذلك يحمل معنى ما".

غمغمت مرة أخرى متسائلًا عما إذا كان ذلك يعني أي شيء سوى أنها كانت تخشى أن تكون بمفردها.

تنهدت السيدة «أوليف» قائلة: "ربما، فلن أضطر إلى

تلميع كل الأواني الفضية كل يوم لو كنت أحب زوجي أكثر قليلًا".

لم أستطع منع نفسي من الضحك على ما قالته.

فقلت: "لا يجب أن تقولي ذلك يا سيدتي. أعتقد أنكِ يجب أن تحاولي أن تحبي نفسك أكثر قليلًا".

ابتسمت السيدة «أوليف»، وأخذتني ابتسامتها بَغْتَة.

قالت: "لم أفكر في الأمر على هذا النحو أبدًا من قبل، يا دكتور".

وبحلول الساعة 6 مساءً كنت قد تحدثت إلى أربعة مرضى قبل الغداء وأربعة آخرين بعده، لكنني لم أكن متعبًا. على العكس من ذلك، شعرت برغبة في الرقص، كأني أريد أن أنتزع عظامي العجوز واغتنام فرصة أخرى كشاب، كرجل مكتمل الرجولة. بل كرجل عادي كما قد يبدو. إنني أردت بشدة أن أكون شخصًا يعني شيئًا لشخص آخر.

كنت مضطربًا بشكل غريب وغير قادر على اتخاذ قرار بالعودة إلى المنزل، فأخذت أهيم على وجهي وأتجول في العيادة، أوَّلًا بمحاذاة الجدران في الغرفة الكبيرة، متجاوزًا مقعد السيدة «سورجو»، حيث تركت أصابعي تنقر على المكتب الجميل، ثم عدت إلى مكتبي الخاص. لقد أحببت هذا المكان حقيقة. فهنا عثرت على أول شيء يخصني، وقد أكون بارعًا فيه. لماذا تركته يفلت مني؟ هل كنت

مجرد إنسان كسول، أم كنت متغطرسًا حقًّا لدرجة أنني شعرت بالملل من بؤس الآخرين؟

بينما كنت أمشي بمحاذاة النافذة، نظرت إلى الشارع المهجور. شعرت بخشب عتبة النافذة البارد يدفع راحتي بقوة مضطردة، وتأرجحت قليلًا ذهابًا وإيابًا. ثم انحنيت إلى الأمام إلى أن لامست جبهتي الزجاج، وشعرت بالدم ينفث تحت جلدي الذي لامس لوح النافذة الزجاجي.

# القرار

كانت الساعة 7.35 صباحًا، وكانت السماء تحلق فوقي كحقل ثلجي أزرق. وهناك مجموعة أطفال يرتدون زيًّا مدرسيًّا بدا أملس بعد كيّه حديثًا وشعورهم ملساء مشطت إلى الخلف وقد أخذوا يداعبون بعضهم بعضًا ويمرحون ويدفعون بعضهم بعضًا، ويشتبكون ليرون من يمكنه تفادي الدفع على الطريق. لا بدَّ أنهم في طريقهم إلى مدرسة «سانت بول»، على الجانب الآخر من المدينة. ولا بد أن عددًا من الأمهات اللواتي قمن بتوديعهم بالقبلات قد ترددن عليّ على مر السنين وجلسن على أريكتي. وفجأة هتف صوت طفولي مفعم بالبهجة من ورائي مباشرة قائلًا: "صباح الخير يا سيد!".

إنها الفتاة الصغيرة التي تسكن المنزل رقم 4 والتي كادت أن تتجاوزني بقفزة تشبه قفزة القنفذ. وقبل أن أتمكن من الرد كانت بالفعل قد قطعت مسافة في الشارع إلى الأسفل، وحقيبتها المدرسية تتأرجح على ظهرها صعودًا وهبوطًا. وبمجرد أن ألقيت نظرة على عيادتي في أسفل الطريق، عرفت أن السيدة «سورجو»، لم تعد بعد؛ فالخواء كان يشع عَمَليًّا من المبنى المشيد بالقرميد والوحدة مطبقة، هكذا فكرت، وأنا غير متيقن مما إذا كنت أعني وحدتي الخاصة أم وحدة أخرى.

وبمجرد أن انتهى اليوم وقمت بوضع ملفات الحالات الثماني مؤقتًا على زاوية مكتب سكرتيرتي، انبلج قرار في ذهني. ربما تكون الفكرة قد نبتت في وقت ما أثناء الليل، وهي التي جعلتني أتوقف الآن عند بائع الزهور، حيث تكرم زوج واحدة من مرضاي لا أعرف اسمه وساعدني في اختيار باقة من الزهور وبعدها رافقني عبر شارع «بافيليون» إلى أن صعدت على متن الحافلة رقم 31 المكتظة.

في الطريق استدعيت لقائي الأول مع السيدة «سورجو». لقد تقدمت للوظيفة حسب الإعلان الذي قمت بنشره في الصحيفة المحلية فور أن أدركت أنه لا يمكنني أن ألعب دور الطبيب وفي الوقت نفسه أقوم بالأمور الإدارية. كنت قد خصصت يومًا كاملًا لإجراء المقابلات، ولكن بعد أول ثلاثة مرشحين للوظيفة وجدت نفسي على استعداد لأن أتخلى عن فكرة العثور على شخص يمكنني أن أتحمل العمل معه برمتها.

الآن وصلتْ. كانت ترتدي تنوره طويلة وسترة تنسجم معها بشكل لا تشوبه شائبة، وقد لملمت شعرها إلى الوراء في كَعْكَةٍ ملفوفة بإحكام ولم أرها أبدًا بعد ذلك من دونها. ولسبب ما، تذكرت بوضوح أيضًا حذاءها الجلدي بني اللون وكعبه المنخفض والمثبت بإبزيم في الأمام، والذي ظلت ترتديه لخمس سنوات على الأقل بعد تَوْظِيفها عندي. وطلبت أن أملي عليها شيئًا لتكتبه على الآلة الكاتبة، وهو

ما قامت به بسرعة وبلا أخطاء، وذلك قبل الاستفسار عن الأماكن التي عملت بها في السابق.

قالت: "كنت أساعد والدي في متجره منذ كنت في الثانية عشرة، وكنت أنا من يقوم بعمل الحسابات وكتابة نسخ مقروءة من الرسائل التي كان يرسلها إلى الموردين والعملاء. وفي التاسعة عشرة حصلت على وظيفة لدى محامٍ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مسؤولة عن جدول مواعيده، وكل أوراقه، وأرشفة ملفاته، وما إلى ذلك".

أعطتني ورقة مطوية بعناية، كانت تحتوي على بضع كلمات تُثني على جهودها.

قالت: "اتصل به بأي وسيلة تشاء لتطمئن وتتأكد بنفسك من جودة عملي".

في اليوم التالي أبلغت السيدة «سورجو»، التي كانت آنذاك الآنسة «بينوت» أن الوظيفة من نصيبها.

لم أر البيت الأحمر ذا اللافتة المشغولة بالحديد المطاوع والمثبتة على بوابة الحديقة والمكتوب عليها رقم 12 إلا بعد أن تجاوزته الحافلة، فوجدت نفسي أصرخ فجأة في السائق كي يتوقف ويدعني أنزل. كان شيئًا مريحًا أن أفلت من كتلة الأجسام البشرية المتراصة بإحكام كسمك السردين، وبمجرد أن خرجت أخذت أمسح سروالي بشكل محموم.

بعد عدة سنوات من توظيفها عندي قمت بالاتصال بالسيد «بونيفي»، المحامي الذي ذكرت السيدة «سورجو» اسمه على أنه صاحب عملها السابق. كنت أرغب في الاستفسار عن إمكانية شراء هذه العمالة -التي كانت حتى ذلك الحين مؤجرة لي فقط- وبينما كنت أثني ثناءً شديدًا على سكرتيرتنا المشتركة قال إنه لم يسمع باسمها في حياته فأصابتني الدهشة. ولم أذكر ذلك قط للسيدة «سورجو». كان عملها لا يعيبه شيء، وعلى أي حال فقد شعرت باستمتاع غريب عندما كشفت سرها. السر الذي كان لنا وحدنا ذات يوم ثم بات سرًّا لي وحدي، ولم يزدني خداعها لي إلا احترامًا لها.

انحنيت ورفعت قبعتي قائلًا: "طاب يومك يا سيدتي".

إنني لم أفكر في الزيارة كما ينبغي، وفجأة اكتشفت أنني لا أملك أي تصور عما أفعله بنفسي.

أخذت السيدة «سورجو» تحدق في وجهي وكأنها نسيت من أنا، وغمغمت في حيرة بينما كنت أنقل ثقل جسدي من ساق إلى أخرى. أدهشني كم تبدو مختلفة. يبدو أنها فقدت عدة كيلوجرامات، وقد لملمت شعرها في كَعْكَةٍ منتصبة ممتلئة بخصلات شعر يخطه شيب لم ألاحظه من قبل.

ثم تذكرت الزهور التي لا تزال مثبتة بإحكام في قبضتي الرطبة فسلمتها إلى السيدة «سورجو» وأنا أمرر لها

عصاي. ربما وقعت هي أيضًا فريسة للعادة القديمة، لأنها أخذت الباقة، وبدا أنها تساعدها على تَذكُّر كيف تكون إنسانًا.

قالت: "شكرًا جزيلًا يا سيدي. سأضعها في الماء فورًا".

ثم تنحت جانبًا وفتحت بابًا وهي تقول: "تفضل، إذا سمحت؟".

# قهوة

بادرت بالقول: "إنني أواجه صعوبة جمة في إدارة العيادة من دونك، وبوسعك وبالتأكيد أن تتخيلي ذلك".

خطرت لي هذه الجملة وأنا في الحافلة. ووصفت لها كيف أن ملفات الحالات المرضية تتراكم على مكتبها، وكم من المرضى كانوا يطمئنون عليها ويرسلون لها تحياتهم.

ابتسمتْ بوهن وقالت: "ما ألطفهم!".

ثم استطردتْ قائلة: "ولكن لا بدَّ أن أقول إنني لا أفهم ما الصعوبة التي تجدها في تنظيم الملفات في أرشيف بالخزانة حيث كانت، كما تعلم، وحيث كانوا دائمًا؟!".

كان شيئًا لطيفًا أن توبخني، واحمرت وجنتا السيدة «سورجو» قليلًا وهي تتحدث.

قالت: "إنني عملت لديك منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ولم أحصل تقريبًا على إجازة، والآن يبدو البيت مهددًا بالانهيار في اللحظة التي حصلت فيها على إجازة...".

مررت يدها بسرعة عبر فمها، وجلسنا لبضع ثوان في صمت.

ثم نهضت فجأة وقالت: "قهوة؟".

راقبتها وهي تصنعها. كانت حركاتها أبطأ وأقل كفاءة إلى

حد ما مما كانت عليه في العيادة مما أشعرني على الفور بالحزن وبأني وبصورة غريبة حظيت بالشرف لأنني رأيتها على هذه الحال.

قالت وهي ما زالت تدير ظهرها نحوي: "إنه لطف منك أن تأتي لرؤيتنا مرة أخرى. إن «توماس» ممتن كثيرًا لزيارتك الأخيرة. وقد بدا أكثر هدوءًا مؤخرًا".

أجبتُ وأنا أهزّ رأسي: "يسعدني سماع ذلك، لكنني أعتقد أنه هو الذي ساعدني على الأرجح وليس العكس. كيف حاله اليوم؟".

أجابت: "لقد نام توًّا".

ثم وضعت إبريق القهوة على صينية.

و قالت: "إنه مر بليلة سيئة. كان هناك الكثير من هذه الليالي".

تقدمت إلى الطاولة مع الصينية ودفعت برفق بضع أكوام من الورق جانبًا ووضعت أمامنا الصحون والفناجين والسكر وإبريقًا وكِريمة وقهوة.

سألتها: "منذ متى كان هذا؟".

تحكمت في حركاتها ثم سَوّت السيدة «سورجو» مفرش المائدة أمامها عدة مرات وتنهدت وقالت: "لقد بدأ الأمر قبل أن يبلغوني بمرضه بفترة. كان «سورجو» يعاني من

آلام في المعدة استمرت عدة أشهر، لكنه لم يذهب إلى الطبيب. وبعد أن تهربنا اضطررنا إلى اللجوء للأطباء في نهاية الأمر، فقالوا بشكل صريح إنه لا جدوى وإنه لا يوجد شيء يمكنهم القيام به فقمت بإعادته إلى المنزل مرة أخرى، وعندئذ قررت البقاء هنا معه".

نظرتْ إلى أعلى وعيناها تلمعان.

قالت: "قد يموت في أي وقت، حَتْمًا".

أومأت إليها ونظرت إلى يدها التي كانت مستلقية على الطاولة أمامي وكأنها طائر رمى به شخص ما من السماء.

فقلت: "إن «توماس» رجل طيب".

وفوجئت مرة أخرى بمدى قصور كلماتي. لا بدَّ أن السيدة «سورجو» متزوجة من «سورجو» منذ أكثر عن عشرين عامًا. وهو الآن يحتضر على الجانب الآخر من الجدار إلى يميني، وكل ما يمكنني قوله إنه كان رجلًا طيبًا!

لكن السيدة «سورجو» أومأت برأسها ببساطة، وصبت القهوة لكلينا ووضعت قدميها على أقرب مقعد.

قالت بشيء من التعجب: "تخيل مرة..".

وتأملتني بعينين ضيقتين.

فاعتدلت متململًا في مقعدي. وقلت: "أتخيل ماذا يا سيدتي؟".

قالت: "حسنًا، تخيل أنك أتيت!؟".

ترخي عينيها التي كانت تحدق فيّ وهي تنفخ في قهوتها وتتناول رشفة.

قالت: "أن تأتي هنا. لم أكن لأصدق ذلك أبدًا".

وصلت إلى فنجاني وابتسمت مرة أخرى ردًّا على ابتسامتها.

وقلت: "هذا أقل ما يمكنني عمله".

# جلسة «أجاتا» العاشرة

جلستْ «أجاتا» بجوار النافذة مع شمس أوائل الصيف الخائرة فسقطت أشعتها على شعرها فبدا مظهرها وكأنها شخص جاء من مَكَان قَصِيّ. وإذا لم تكن على علم بحالتها، فسيكون من المستحيل أن تكتشف أنها مريضة. وللحظة طويلة المدى وقفت هناك وأنا أحدق فيها.

ثم استجمعت شتات نفسي وقلت: "مساء الخير يا «أجاتا». تفضلي".

أجابت وهي تسير إلى المكتب: "شكرًا لك. أنت تبدو حزينًا اليوم، ولكنك تبدو كذلك دومًا. هل أنت حزين يا دكتور؟".

كان السؤال بسيطًا لكن ما من أحد طرحه عليَّ من قبل، وقد ضربني مثل اللكمة.

"أنا...!" هكذا بدأت، إلا أني شعرت بحلقي يجف جفافًا شديدًا، واضطررت إلى بلع ريقي قبل أن أتمكن من أن أتابع قائلًا: "لم أفكر في الأمر كثيرًا".

قالت: "أنت لم تفكر في الأمر كثيرًا؟".

جلستْ على حافة الأريكة وحملقتْ بي في تحدٍّ. كانت عيناها الواسعتان قريبتين أكثر مما ينبغي حاولت جاهدًا ألا أشيح ببصري عنها.

أجبت: "لا".

قطبت جبينها وقالت: "لكن يا دكتور، كيف يمكنك قضاء حياتك تخفف من معاناة الآخرين في الوقت الذي لا تضع أي اعتبار لحياتك؟".

إنها الحرارة اللعينة. كنت مستعدًّا أن أضحي بأي شيء في سبيل فتح إحدى النوافذ، لكن ساقيّ خارتا من تحتي، لذلك بقيت على مقعدي بينما انبعث دفء حارق من وسط صدري ثم استشرى في بقية جسدي .فربما أكون قد طورت قدرة معينة على تجاهل هذه الأسئلة بعدما أغادر المكتب في المساء.

قلت بنبرة صوت كنت آمل أن تبدو مسترخية: "كيف حالك اليوم، يا «أجاتا»؟".

سألتْ بإصرار: "أنت لا تريد أن تجيب عن سؤالي؟ كيف يمكنك أن تدعي فهم الآخرين إذا كنت لا تعرف حتى كيف حالك؟".

تشبثتْ بنظرتي وأنا أحملق فيها، وأخذت أغرق أكثر فأكثر بينما تلاشى القلم الرصاص، والمُفكِّرة، وجميع الكتب العلمية، حتى أصبحت في النهاية عاريًا، مجرد رجل مذعور يبلغ 72 عامًا تقريبًا، مع نظارة ملطخة ولحية طويلة أكثر من اللازم.

شعرت وكأن وقتًا طويلًا قد مر على نحو مذهل قبل أن

أجيب قائلًا: "حَسَنًا، أعتقد أنني لا أستطيع. أنتِ على حق".

فرفعت ذراعي ثم قلت: "ليس لدي أدنى فكرة عما يجعل الناس يتعايشون! ماذا تقولي في ذلك إذًا؟ الأمر كله مسرحية كبيرة!".

أرسلت «أجاتا» زفيرًا عبر أنفها، فخرج صوتها ما بين ضحك وشَخير وقالت: "لا بأس، لا بأس. الآن أنت تبالغ، يا دكتور! لقد تحدثت إلى الكثير من الرجال في مجال الطب قبلك، وقليل منهم أنصت إلى ما قلته. وأنا أقدر مساعدتك كثيرًا".

قلت: "أنا لم أفهم شيئًا؛ ألم نتفق توًّا على أنني كنت مخادع؟".

قالت: "أنا ببساطة أجيء هنا وأتحدث إلى شخص يهتم بي فعلًا ولا يقول لي إنني يجب أن أدخل المستشفى، وهذا يعني لي الكثير. ألا تدرك ذلك؟".

هززت رأسي.

قالت: "حَسَنًا. ولكن لا يبدو لي منطقيًا أن تجلس هنا وتزعم أنك خبير في الاضطرابات النفسية إن لم تكن تفكر مجرد تفكير حتى في أنك ربما تعاني".

أخيرًا عاد صوتي فقلت: "ولكن ما الذي يجعلك تعتقدين

أنني أعاني؟".

قالت: "من أين أبدأ؟ إنك تنهار منذ مرض سكرتيرتك. هناك رائحة غريبة هنا، والمكتب في حالة فوضى عارمة، ويُهيأ لي أنك كنت ترتدي نفس البَدْلَة منذ أول يوم قابلتك فيه".

كشفت ابتسامتها عن ذقن مدبب، لكنها واصلت كلامها بمزيد من الجدية: "ثم إن هنالك يديك المرتعشة، بالطبع".

نظرت في دهشة إلى يدي المرقطة ببقع حمراء.

قالت: "لكن وجهك هو الذي يفضح أمرك حقًّا. حتى عندما تبتسم... تبدو حزينًا".

فقلت: "نعم، لا بأس، أظن أنكِ على صواب. ولكن ما الذي كان من المفترض أن أفعله حيال ذلك؟ إذا كانت الحياة نفسها هي التي خيبت أملي".

وفي محاولة كَيْ أعيد إحكام قبضتي على الجلسة سألتها: "لماذا تظنين أنني أجلس هنا متقاعسًا حيث لا يراني أحد؟".

أشارت إلي متوعدة: "آها، الآن بدأ كلامك يكون منطقيًّا!".

ضحكت بصوت لم يكن صوتي، أو ربما كان الضحك هو الذي لم أتعرف عليه. ولكن كان هناك شيء تحرري في

كوني أصبحت عاريًا أمام «أجاتا».

فقالت: "صحيح، لذا يمكنك فعليًّا أن تضحك. هذا مزعج. ويعني أنني أدين لـ«جوليان » بوجبة غداء".

# السباحة

كان الخوف يتربص بي بمجرد أن غادرت «أجاتا» المكتب، فضربتني موجة منه وحملتني على قدمي. كان هناك عدد مرعب من الساعات ما زال متبقيًا قبل أن أتمكن من الاستلقاء والنوم، ومجرد التفكير في الفرار من الخوف جعلني أشعر بالإرهاق.

في طريق العودة للمنزل اشتريت الخبز ولحم الخنزير للعشاء. كانت ملامح البائع باهتة بصورة غريبة. ولم أستطع أن أستوضحها، ودوت نبضات قلبي في أذني.

قال: "تسعون سنتًا، يا سيد".

سلمت له بعض المال واستدرت كَيْ أمضي.

فهتف: "يا سيد، باقي الثمن!".

سمعت ذلك من مكان ما ورائي، لكن حركتي كانت قد استتبت ولم أتمكن من إيقافها.

كان هناك طَقطَقة في صدري، وكان شعورًا أكثر منه قرارًا أن أترك قدماي تحملاني رأسًا إلى الطريق المؤدي للمنزل نحو البحيرة بدلًا من الطريق الذي يؤدي مباشرة إلى المنزل.

«أجاتا»، «أجاتا»، هكذا تردد الاسم في رأسي كالتغريدة. وفجأة كان هناك ماء أمام قدمي، ولم أتعثر حتى بعد أن تسلل الصقيع عبر حذائي.

تقدمت خطوة أخرى. كانت الأرض صلبة ولدنة في الوقت نفسه، والمياه تبلل قصبتي ساقيّ حتى المنتصف، ولم يسبق أن شعرت بمثل هذا الانتعاش في حياتي. تسرب البرد إلى سروالي، إلى جلدي ثم توغل إلى عمق حرارة الخوف، وبمجرد أن وصل الماء إلى الوركين، تركت نفسي أنزلق إلى الأمام وغصت، وأخذ جسمي المتعرق المتوتر يغطس.

تنهدت: "آآآه".

ثم انقلبت على ظهري وأخذت أسبح في سلاسة أشعرتني بتحرر كنت قد نسيت وجوده، حتى بلغت منتصف البحيرة.

# تَفَاهَات

لم تكن أول مريضة لهذا اليوم تقل عن السيدة «ألميدا» في شيء. وقد سجلت ملاحظة ذهنية أنه سيتبقى لي بعدها مئة جلسة بالضبط. لقد تغيبت المرأة الضخمة عن كل مواعيدنا منذ أن باغتها وطلبت منها أن تطبق تجربتي، وبدأت أعتقد أنني ربما أسأت الحكم عليها.

ومع ذلك، ودون سابق إنذار، كانت هناك. كان فمها خطًّا رفيعًا وساخرًا، وكعبها يطقطق على الأرض بطريقة تنطوي على اتهام، أما المدهش أكثر أنها كانت صامتة.

وبادرت قائلًا: "إذًا كيف كان حالك خلال الأسابيع القليلة الماضية، سيدتي؟".

هزتْ كتفيها.

تابعت قائلًا: "إنني كلفتك آخر مرة بمهمة صعبة. لعل بوسعك أن تخبريني أي تقدم أحرزتِ فيها؟".

رمتني بنظرة فظة وقالت: "لم يفلح الأمر".

قلت مشجعًا: "حَسَنًا، هذه أيضًا أحد نتائج التجربة. كيف لم تفلح؟".

قالت: "حسنًا، كان ذلك مستحيلًا. لقد كانت مهمة بلهاء بكل ما تحمله الكلمة من معنى!".

نظرت إليَّ مرة أخرى كطفلة مشاكسة، وبرز فكها السفلي، واضطررت إلى أن أكظم ابتسامة.

ثم تابعت قائلة: "أنت ببساطة لا تعرف «برنارد». وبدأت أعتقد أنك لا تعرفني أيضًا!".

قلت: " حَقًّا؟".

فقالت: "نعم! إذا كنت تفهمني لما اقترحت أبدًا أن آخذ قسطًا من الراحة. لأن سبيلي الوحيد كَيْ أشعر بالسكينة هو أن أشغل نفسي".

قلت مبتسمًا: "آها".

اشتبكت معي قائلة: "آها ماذا؟" كل ما تفعله هو الجلوس هناك مع همهماتك وآهاتك، وأي نفع سيعود عليَّ من ذلك؟".

قد تكون محقة في هذا، لكنني لن أدعها اليوم تتملص مني بالحيلة والمكر بهذه السهولة.

سألت: "ذكريني مرة أخرى بما تحتاجينه مني كَيْ أساعدك، يا سيدتي؟".

غمغمت ثم قالت وهي تبقبق: "آه، بحق السماء، إنها نكتة، أنت تسألني هذا السؤال بعد مرور ثلاث سنوات؟".

قلت: "إنني أعتقد أنك أتيت هنا كَيْ تملكي زمام أعصابك. لقد ناقشنا كل شيء منذ طفولتك وحتى عدد

أنفاسك دون جدوى على الإطلاق، لذا يجب أن تكون الخطوة المنطقية التالية هي أن نحول تركيزنا إلى الحاضر، وإلى تعلم كيفية نقل الأشياء البسيطة إلى القلب قليلًا. لكنك ترفضين القيام بذلك. لذلك أنا أسألك: ما هي المساعدة التي تريدين أن أقدمها لك حقًّا؟".

انهارت السيدة «ألميدا». وفقدت كتفاها العريضتان الأنفاس، والتف ظهرها بشكل وقائي فوق بطنها المنثني.

قلت: "إذا كان لديك رغبة في أن تتحسني، يا سيدتي، أرى أن هناك خيارين وكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطًا وثيقًا. الأول أن تصبحي أقل استغراقًا في كل تفاهة من تفاهات الحياة اليومية وأن تختزلي واجباتك العادية. الثاني أن تجدي شيئًا يمنح حياتك معنى".

كانت تنصت، وكان هذا واضحًا وضوح الشمس. ربما لم تفهم بعد ما كنت أقوله، لكنها كانت تحاول.

قلت: "ما أعنيه هو أن عليك أن تبدئي في قضاء وقتك في شيء يعني لكِ شيئًا بالفعل، شيء أكبر من التسوق والتنظيف. شيء يجعلك سعيدة! أو..".

ثم أضفت على عجل: "على الأقل شيء تهتمين به وبعدها سوف تبدأ كل التَّفَاهَات الأخرى في التلاشي".

سألت: "كل التفَاهَات؟".

انحنى رأسها وارتجفت شفتها السفلى.

أجبتها: "نعم. كل الأشياء التي تتعاملين معها بِشِقِّ الْأَنفُسِ، وتنفقين فيها ساعات طويلة من وقتك، على الرغم من أنها في الواقع لا تصيبك سوى بالغضب. لا بدَّ أن يكون لديك شيء يتجاوز ذلك!".

أخذت السيدة «ألميدا» شهيقًا. ثم أومأت بتردد ونظرت إليَّ.

ألمحت قائلة: "من المضحك أن تقول ذلك يا دكتور. فلطالما فكرت أنا بنفس الطريقة".

# التنقيب

في ذاك المساء، اكتشفت فجأة أنه من الصعوبة بمكان أن أوفق بين نفسي وبين فكرة أن بيتي يبدو تمامًا كما كان دائمًا. حدقت حولي، وعلى الرغم من أن كل شيء كان مألوفًا إلا أنه بدا في الوقت نفسه أن به شيئًا من تطفل يدعو للخجل. وقد أصابتني دهشة لأنني لم أشتر أبدًا وأنا بالغ أي أداة جديدة من الأدوات المنزلية: شيء لا يتعدى شوكة أو فراشًا جديدًا لسريري. كل شيء إما ورثته أو أعطاني إياه والداي، واحتفظت به لأنه يعمل.

لذلك بدأت بصور والدي. قمت برفع الصورة تلو الأخرى من على المسامير، وعندما فعلت ازدادت دهشتي من مدى تغير لون حوائطي.

كان مجموع الصور سبعًا كل صورة ذات موتيفة تختلف عن الأخرى. وكنت كلما أغمضت عيني أتذكرها كلها أفضل مما أتذكر وجه والدي. والكثير منهم كان أكبر مني عمرًا. كانوا دائمًا معلقين على الحائط هناك، ولم أفكر أبدًا إذا كانوا يروقون لي حقًّا أم لا. ثم التفت إلى المكتب. لم أنظر إلى ما بداخله منذ سنوات عديدة، وبفضول معين قمت بالتنقيب في الأدراج. لم يكن والداي عاطفيين؛ لم أسمعهما يحكيان، على سبيل المثال، القصص الهزلية المعتادة عن الأشياء التي كنت أقوم بها عندما كنت طفلًا، ولكن في أحد

الأدراج، وجدت صندوقًا به أسناني اللبنية. وفي العديد من لوحات أبي كان هناك شخص ذو ملامح باهتة كنت أعرفه دائمًا، كان أنا. وهناك آثار أقدام طفل مطبوعة في الرمال وشخص طويل وقصير بين الأشجار في غابة بعيدة.

وفي الدرج السفلي، وجدت قطعة قماش، وبدأت أضع عليها الأشياء التي كنت أنوي التخلص منها. كان الدرج العلوي عالقًا، لكنني أخذت أحركه وأهزه حتى انفتح. واتضح أنه يحتوي على بعض من مؤن الأدوات الفنية الخاصة بوالدي: الطباشير الملون والطلاء الزيتي والفرش التي حُفظت بعناية في أكياس واثنين من كراسات الرسم الكاملة. كما وجدت أيضًا علبة أقلام رصاص خاصة لم يكن والدي يسمح لي باستخدامها إلا عندما كنا نرسم سويًّا فقط.

كانت الأدراج الصغيرة في الأعلى تحتوي على مراسلات والديّ من زمن يسبق انتقال والدتي من إنجلترا علاوة على بعض الصور، وفتَّاحة رسائل وكيس من الورق الأبيض به طوابع لم تعد تصدر منذ زمن بعيد. ومعظم هذه الأشياء ذهب إلى كومة القمامة، حتى وصلت إلى واحدة من المُفكِّرات السوداء التي وجدتها في الدرج الأوسط، وكان ذلك من دواعي سروري. وقد كنت أستخدم هذه المُفكِّرات منذ سنوات في ساعات متأخرة من فترة ما بعد الظهيرة. فبمجرد أن يغلق المريض الأخير الباب خلفه ورغبة مني في

القيام بعمل الأشياء بشكل أفضل، أقوم بمناقشة الحالات مع نفسي وأدون وأتدرب على الاستماع، لقد قيل لي ذلك في مكان ما. وشعرت بوخز هادئ من الندم وأنا أفكر في نفسي وأنا أصغر سنًّا، بينما كنت أجلس هناك أفكر وأنا حائر بشأن الطريقة التي يمكن أن يحرز بها المرء تقدمًا في مهنته. مررت سبابتي برفق عبر ملاحظات متحمسة مدونة على ورق المُفكِّرة. كونت الكتابات ذاتها الرجل الذي أصبح شخصًا آخر دون أن أنتبه.

جلست لفترة طويلة في نفس الوضع وتصفحت المُفكِّرات، مستمتعًا بالملاحظات الجيدة وباستغراقي في ذكريات عن مرضى صِعاب المراس بشكل خاص أو مرضى محببين إلى نفسي، حتى لم يعد بوسعي الاستمرار في ذلك، فكل شيء كان يؤلم.

جلست على حافة السرير مُتَململًا وتساءلت عما إذا كان من الممكن أن أزعج نفسي وأقوم بتنظيف أسناني. وبدلًا من ذلك، أخذت أنحني إلى الوراء حتى استلقيت على ظهري، وظلت أرجلي متدلية على حافة السرير وقدماي مستقرتين على الأرض. استيقظت في منتصف الليل فوجدت نفسي على هذا النحو مع تشنجات مبرحة في كل مكان، وبالكاد تمكنت من خلع حذائي والزحف تحت الأغطية قبل أن أعود إلى النوم.

في اليوم التالي، أفقت وجسدي يتألم ولكنه مرتخٍ بشكل

رائع. تناولت الفَطُور في الغرفة الأمامية التي بدت جديدة وعارية من اللوحات؛ وبدت مثل قطعة من قماش الكنفا التي تتضرع كَيْ يطرزها أحد. عندما غادرت المنزل، كنت أجر كيسًا أسود على الأرض، قذفت به على أحد الجوانب التي تبعد بضعة شوارع.

**12 / 5/ 1928، دفتر الملاحظات رقم. 4**

**ملاحظات عامة**

يسير الأمر بشكل طيب عندما أجلس خلف المريض؛ هذا يجعلهم يتحدثون بحرية أكبر فيرسمون روابط أعمق بين الأشياء. أقرأ المزيد عن تفسير الأحلام؛ كيف يجب فهم حلم السيدة «تريمبلايس» الذي تفقد فيه أسنانها والذي يعاودها مِرارًا وتكرارًا؟

# أسلوبي

إنني أحاول طرح أسئلة أقل، وإعطاء المريض مساحة أكبر. هناك فارق بين الأسئلة التي لا توجد لها إجابات محددة والأسئلة الاختيارية. والمطلوب من المريض أن يفهم لا أن يتلاعب. تحدث «آلين» عن أخته التي غرقت أمام عينيه. ما عسى المرء أن يفعل مع حزن شخص أثناء علاجه؟ لم أكن أرغب في أن تتحول عملية الإزاحة وتحويل المشاعر وإعادة توجيهها إلى نقطة خلاف، لذلك لم أقل شيئًا. أين الخط الفاصل بين الفُتُور والمهنية؟

«آلين»: يتحرك رأسًا نحو قلب الصدمة النفسية ألا وهي فقدان أخته، لديه شعوره بالذنب وبأنه فقد حب والدته.

استمر.

السيدة «تريمبلاي»: هل يمكن قراءة فقدان أسنانها على أنه فقدان القدرة الجنسية؟ أم شعور بالعجز في زواج سيئ؟

السيدة «صوفي»: لم تحرز تقدمًا كبيرًا بعد، فهي تتناول الأمور بسطحية. يجب توجيهها كَيْ تكون أكثر نشاطًا.

«لوران»: مصابة بمتلازمة الوسواس القهري. تحضر معها بطانية لأريكتي وتغتسل كل مرة. استبقاء الشرجي؟

السيدة «مينور»: لطيفة جدًّا. ربما حلو ة للغاية. لا تملي إرادتها أبدًا، هل عبارة "دعني أمسك بزمام كل الأمور"

تمثل انعكاسًا لسلوكها في العالم الحقيقي؟

«إم. ريسيتيور »: اكتئاب. بالكاد يتحدث. ماذا حدث؟؟

## جلسة «أجاتا» الحادية عشرة

لقد عقدت ست جلسات قبل أن أبلغ جلستها. لقد فكرت مليًّا في محادثتنا الأخيرة وقلبتها في رأسي، وبكل صدق لم أكن أعرف ما المتوقع. هل يمكن أن نستمر كما كنا من قبل، أم أنها فقدت احترامها لي بطريقة ما بعد انهياري؟

عندما فتحت الباب لأدعوها إلى الدخول كانت تنحني وتنظر من النافذة.

قالت: "أعتقد أن الصيف قد هَلَّ علينا دون أن ألاحظ، يا دكتور".

ثم اتجهت نحوي وقالت: "قبل بضعة أسابيع فقط كان الثلج يتساقط، والآن بات كل شيء ملونًا".

ألقيت نظرة سريعة إلى الطريق. كانت محقة؛ فالشجيرات تنبض بالحياة في فيضان أخضر، وكان العشب في المروج نَاضِرًا وكثيفًا. وعند حلول المرحلة التي سأتحول فيها إلى متقاعد، ستكون ذروة الصيف قد هَلّت.

جلست خلف «أجاتا» وانتظرت في ترقب واستلقتْ هي في صمت لعدة دقائق. وعندما تكلمتْ أخيرًا، بدا الأمر كما لو كانت قد شكلت الكلمات في فمها قبل ذلك بكثير وحملتها معها حتى يمكن إطلاق سراحها هنا.

وسألتْ: "هل تتذكر اليوم الذي سألتني فيه عن الشيء

الذي أخاف منه، يا دكتور؟".

قلت: "نعم؟".

قالت: "لعلك قد خمنت بالفعل، كان والدي يلمسنا. وفي أغلب الأحوال يلمسني أنا -لأني ولدت أوَّلًا- ويلمس «فيرونيكا» أيضًا. في بعض الأحيان كان يمسك بي بينما كنت أسير بالقرب من كرسيه، ولم أكن أتمكن من الإفلات منه مرة أخرى. ثم يبدأ في تلمس طريقه عبر جسدي، وينتقل من فخذي إلى أعلى بين ساقي، وحول الوركين وأسفل، فوق صدري وأعلى رقبتي. وينتهي بوجهي".

بلعت ريقها بصعوبة، وفَتَرَ صوتها وبَعُدَ بينما كانت تصف معالم الطريق الذي سلكته يداه. شعرت باشمئزاز يتدفق عبر جسدي وهي تتحدث. لقد كانت محقة، واستشعرت أن مرضها النفسي يكمن في هذا الذي تقوله لي الآن، لكنني ما زلت أشعر بالغضب. كنت قد سمعت قصصًا عن الإساءات الجنسية من قبل، إلا أن هذا كان أكثرها خبثًا وأكثرها تسترًّا.

تابعت قائلة: "كان دائمًا يقضي معظم الوقت فوق وجهي، وخاصة فمي. لم يكن بمقدوري أن أبكي، لأنه كان يواسيني بعد ذلك، وكان ذلك هو الأسوأ تقريبًا".

شعرت بتوتر يسري في فكي وأنا أفكر في وجه والدها المشبع باللذة وعيونه العمياء الواسعة وأتخيل جسد «أجاتا»

الطفولي المُتَيَبِّس وهو يتقلص تحت يديه. أدركت أنني كنت أضغط على القلم الرصاص بشدة لدرجة أنه كان يؤلمني، فخففت قبضتي.

تابعت «أجاتا» قائلة: "لقد كان الأمر مقززًا للغاية. لقد كرهته إلا أن أمي قالت إن هذا شيء طبيعي، وإن ذلك مجرد طريقة يتبعها كَيْ يبصر. إنه كان يحاول أن يفهم من أنا".

سألتها: "متى توقف ذلك؟".

قالت: "هو لم يتوقف حقيقة إنما أنا التي غادرت المنزل فَحسْب. كان الأسهل لي أن أتجنبه وعندما عدت لزيارتهما كنت أجد لديهما عادة ضيوفًا آخرين. أما هو فقد مات قبل عشر سنوات".

سألت: "وأمك؟".

تنهدت «أجاتا» وقالت: "إنها لا تزال تعيش هناك. وأقوم بزيارتها عدة مرات في السنة، ولكن غالبًا هي..".

كانت تبحث عن كلمة.

ثم قالت: "حَسَنًا، لقد انتهى الأمر بنا إلى طريق مسدود".

فقلت: "يبدو أن والدتك كانت عمياء مثل والدك".

كنت آمل ألا تتبين الهزة التي حملها صوتي. لو كان

بمقدوري لحرمتهما نور الحياة.

قالت: "في الواقع أنا أعرف أن والدتي كانت على دراية تامة بما كان يفعله ولكن لا يمكنني أن أعرف ما إذا كانت غير مبالية به أم كان يروق لها أن تراني أمامها أعاني".

أذهلتني تلك الفكرة المباغتة.

سألتها: "هل تتذكرين التلسكوب في حلمك، يا «أجاتا»؟".

أجابت: "نعم؟".

سألتها: "هل يمكنك أن تعرفي دلالته التي لم نفهمها في السابق؟".

مِلت نحوها في تشوق.

قالت في تردد: "لا... ماذا تقصد؟".

قلت: "أعني أن التلسكوب هو صراعك الأساسي".

كنت على وشك أن أطلق صرخة الآن، لكنني كنت متشوقًا للغاية أن أتوقف.

قلت: "أنتِ تريدين أن تكوني مرئية أكثر من أي شيء آخر، وإلا فلن تكوني موجودة! ما رآه والدك بيديه هو شيء انتهى بك الحال إلى أن تكرهينه. وقد سمحت والدتك بحدوث ذلك، على الرغم من أنكِ كنتِ تنهارين أمام عينيها

جسديًّا ونفسيًّا. ألا ترين ذلك؟ لقد جعلك والداك غير مرئية لنفسك!".

كان الدم يهدر في رأسي، ومرة أخرى رأيت «أجاتا» جالسة على حافة المقعد في منزلها الأبيض، وعلى وجهها تعبير ما كان أحد ليحتمله أبدًا. كان صوتها واهنًا، وبدا أنها كانت تحبس أنفاسها وهي تسأل: "ولكن ماذا يعني ذلك؟".

يا له من سؤال في غاية البساطة! وعندما أجبت كنت مدركًا بشكل مؤلم أنه تبقى لي إحدى وسبعون جلسة بالضبط قبل التقاعد، وأن ست جلسات منها فقط كانت مع «أجاتا». وفجأة انخفض الرقم الذي كان دائمًا مرتفعًا جدًّا، انخفاضًا مخيفًا.

فقلت: "هذا يعني أنكِ يجب أن تتعلمي أن تري نفسك يا «أجاتا»".

# الهيئة/ الصور الخلفية

أقيمت الجنازة صباح يوم من أيام الآحاد. أرسلت لي السيدة «سورجو» دعوة رسمية بالبريد، ولم أجد أي سبب قوي يمنعني من الذهاب. لذا وقفت هناك وسط أشعة الشمس وأنا متعرق اليدين مرتديًا بذلة جنائزية سوداء تفوح منها رائحة النفتالين. اصطف الناس أمامي في نفس الكنيسة التي تزوج فيها والداي ودُفِنا. كان معظمهم من المشيعين الأكبر سنًّا، ويرتدون ملابس داكنة ووجوههم وقورة، وصافحني الكثير منهم على الرغم من أننا كنا نعرف بعضنا بعضًا معرفة عابرة. كنت قد مررت بنفس التجربة في طقوس جنازة والديّ. تذكرت كل المصافحات الودودة، والنظرات العابرة التي كانت تسألني عن شيء ما لم أستطع الدفع به إلى السطح. هل تعرف الموت؟

ثم وصلت السيدة «سورجو» وتوقفت أمامي. مددت يدي إليها مصافحًا وقلت: "تعازي".

صافحتني وأومأت. كانت أرق حتى من المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، إلا أن الهدوء كان مرتسمًا في عينيها التي التقت عيناي بها.

قالت "شكرًا لك".

كانت خطواتها تُحدث جلبة على ممشى الحصى الذي تؤدي نهاية امتداده إلى الكنيسة، وللحظة قصيرة قمت

بتثبيت الصورة الذهنية التالية: امرأة تتشح بالسواد وإلى الأمام منها كنيسة بيضاء وهي تدخل من خلال الأبواب المزدوجة، ثم يذوب الأسود في الأسود.

شايعت سكرتيرتي داخل الكنيسة حتى وصلت إلى مقصورة الكنيسة التي تقع تحت الجوقة وجلست فيها، وكان الخشب قد بُلي وبات ناعمًا. كان المبنى من الداخل باردًا، والرائحة المميزة للحجر والخشب والشموع تفوح وتتوارى خلف الدفء الرطب الحار بالخارج. وفاحت روائح أخرى تدريجيًّا: عطور النساء ومَروخ الرجال ورحيق زنابق الماء التي تثير الغثيان.

هل ستعود السيدة «سورجو» الآن إلى العيادة وتساعد في إتمام إجراءات التقاعد الشكلية الرسمية الأخيرة الخاصة بي؟ لم أجرؤ على مناقشة ذلك معها أثناء زيارتي، ولكن لم يتبق سوى أسبوع ونصف قبل أن يحل موعد تقاعدي، وكان يجب ترتيب كل شيء مسبقًا. كان يجب الانتهاء من المرضى المتبقين أو إحالتهم إلى مكان آخر كَيْ يتلقوا العلاج. ويجب تنظيم الملفات حتى يمكن نقلها أو أرشفتها، كما لم يتم إنهاء العقد مع الملاك الجدد للعيادة بعد. ومن دونها سيكون ذلك مهمة كَؤُودًا يتعذر التغلب عليها وإنجازها.

حاولت مرة أخرى التركيز في متابعة المراسم. في الجزء الأمامي من الكنيسة وضِع التابوت المخملي. وتساءلت

كيف يبدو بداخله، وما إذا كان قد رحل طوعًا في النهاية أم لا؟

شيء ما أخبرني أنه رحل طوعًا.

بقيت جالسًا أثناء أداء القداس، خطبة الكاهن والتراتيل الأربع على الرغم من أن ألمًا غادرًا هاجم حلقي وجعل من المستحيل الانضمام إلى الغناء، وتزايد عبق الزهور ليكون أثقل وأثقل واستقر مثله مثل الألم خلف عيني والملل تحت بشرتي، وبينما قام ثمانية رجال يرتدون بذلات تم كيها حديثًا بحمل «توماس» شعرت بشيء ما داخلي ينكسر.

تصاعد نشيج في حلقي، وشعرت بأن وجهي يتغضن ويتجعد وقمت بإخفائه بشكل غريزي بين يدي وانهمرت دموعي بغزارة، وكان عليّ أن أضغط بقوة على إبهامي لأخمد الصوت الحزين الذي يحارب ليجد منفذًا.

كان المفترض أن أثب من مكاني عندما شعرت بذراع تحيط بظهري بدافع التخلص منها أوَّلًا، إلا أنني لم أتحرك. وبدلًا من ذلك، ولدهشتي، بقيت جالسًا في مقصورة الكنيسة الصلبة والذراع الغريب يلفني وأنا أبكي.

# تَقْدِمَة سلام

في اليوم التالي للجنازة توجهت بعد انتهاء عملي إلى متجر «جورماند» لشراء مكونات كَعْكَةِ.

ولم أدرك أنني ليس لدي أدنى فكرة عن من أين أبدأ إلا بعد أن دخلت المحل وعثرت على إحدى السلال. ولحسن الحظ كان هناك شابة تلف شعرها بوشاح مرقط باللون الأزرق تقف خلف "الكونتر" وقد ملأت برطمانًا بالحلوى المجففة، فتقدمت منها وغمغمت قائلًا: "من فضلك، معذرة للمقاطعة، ولكن هل يمكنك أن تقولي لي طريقة عمل كَعْكَة؟".

ضحكت المرأة بصوت عالٍ فكشفت ضحكتها عن غمّازتين مثاليتين.

قالت: "بالتأكيد أستطيع. ما نوع الَكعْكَة التي تفكر بها؟".

فقلت: "هذا سؤال جيد. واحدة بالتفاح؟".

قالت: " كَعْكَة التفاح، يمكننا أن ندبر ذلك. هيا اتبعني!".

قادتني بين الرفوف حيث يوجد الدقيق والسكر ومكعبات الزبد، وقدمت لي عصا من القرفة لأتنشقه ووضعت بيضًا بنيًّا كبيرًا في سلتي.

وقالت وهي تشير إلى بعض السلال الكبيرة التي تحتوي على فواكه وخضروات متنوعة: "التفاح هناك".

ثم سألت: "هل لديك حبَّهان؟".

أجبت: "أخشى أنه ليس لدي سوى القليل من الخبز والجبن البَائِت".

ضحكت المرأة مرة أخرى.

قالت: "أعتقد أنه حان الوقت إِذًا كَيْ توسع التشكيلة".

ثم ساعدتني في إحضار بقية المكونات وأخذت توضح لي أن والدها كان يسلم بيضًا طازجًا إلى المتجر كل صباح، وأن الكَعْكَة التي كنت سأخبزها هي واحدة من وصفات جدتها الراحلة التي كانت معروفة على نطاق واسع بمهارتها في الطهي.

سألت: "لماذا تخبزها؟".

فقلت موضحًا: " تَقْدِمَة سَلاَم".

أومأتْ وكأن الذي قلته هو أكثر شيء طبيعي في العالم.

بمجرد أن تم تغليف جميع المكونات في أكياس ورقية بنية، شكرتها مرارًا وتكرارًا.

ابتسمت قائلة: "كان ذلك من دواعي سروري.هل معك ورقة؟".

تناولت القلم الرصاص والمُفكِّرة اللذين أحتفظ بهما دائمًا في حقيبتي، وبدأت تكتب.

"ما عليك سوى أن تتركها لتبرد كما ينبغي قبل تقديمها. عندها ستكون الكَعْكَة مستعدة لصنع السلام".

كان هناك طحين في كل مكان. لم يكن لدي خفاقة بيض وكريمة، لذلك كانت عملية الخفق وإخراج كل الكتل المتجمعة مهمة شبه مستحيلة بالنسبة لي، على الرغم من أنني قمت بالخفق بأقصى ما يمكنني. ولكن بمجرد أن انتهيت واستقرت الكَعْكَة المستديرة وفاحت رائحتها في علبة أمي القديمة وقطع التفاح هلالية الشكل اتخذت شكلًا حلزونيًّا، استطعت بالكاد احتواء شعوري بالفرحة.

خفق قلبي في صدري وأنا أدق الجرس. فُتح الباب. وإذا كانت رؤيتي قد فاجأته فقد أخفى ذلك جيدًا.

قلت وأنا أبالغ في حركة فمي: "مساء الخير. لقد خبزت لك كَعْكَة".

أشرت برأسي إلى الطبق ومررته نحوه.

أخيرًا ألقيت نظرة فاحصة على جاري. كان، على ما أظن، في مكان ما بالستينيات من العمر، وكان جسمه أكثر استدارة مني. ويرتدي عباءة باهتة من جراء الغسيل، وشعره أشيب جامح، ويرتدي نظارة يبلغ سمكها بوصة مثبتة في حبل معلق حول رقبته. ربما أكون قد أزعجته عندما قاطعته

وهو يقرأ الصحيفة.

وبينما كان يقف هناك وعيناه تطرفان في ارتباك هتفت: "كَعْكَة!".

لفظتها بنفس الطريقة السابقة.

تناول بتردد العبوة الدافئة، ورفعها إلى وجهه وكأنه يستنشق الرائحة. مر تعبير من الدهشة عبر وجهه المتعب. ثم رفع يده ببطء إلى قلبه، وشكل بشفتيه وبصورة واضحة كلمة: "شكرًا". وفجأة ظننت أنني أنظر إلى مشهد مؤسف بشكل مرعب وهو ويقف ببطنه البارز وخصيلات الشعر الصغيرة الخشنة تبرز من أذنيه.

أردت أن أقول له: "أنت موجود، وأنا أنصت إليك وأنت تعزف هناك على الجانب الآخر من الحائط".

وبدلًا من ذلك، أومأت ورفعت يدي بطريقة تنم عن الإحراج وقلت مودعًا : "العفو. شيء بسيط!".

بمجرد وصولي إلى باب منزلي شعرت بسعادة لأنني فعلت ذلك فاستدرت، وعند البوابة المفتوحة، كان جاري لا يزال واقفًا وهو يضم الكَعْكَة إلى صدره، ويرفع يده ملوحًا.

# كَعْكَة التفاح

قم بإذابة معظم الزبد في مقلاة مع التأكد من أنها لا تحترق.

قلب جيدًا ثم أضف كوبين مملوءين من السكر واستمر في التقليب حتى يصفر، أضف أربع بيضات مع التقليب.

خذ أربعة أكواب من الدقيق، قليل من الملح وملعقة صغيرة من بيكربونات الصودا واخلطهم في وعاء. أضف القليل من الحبَّهان وأضف أعواد القرفة والفانيليا. صب أكبر قدر ممكن من المحتويات.

إذا رغبت، يمكنك إضافة القليل من الحليب أيضًا.

قلب جيدًا وغلفها بورق الفوال الرقيق – ها هي عجينتك.

ادهن وعاء معدنيًّا مستديرًا بالسمن وصب العجين، ثم وزع قطع التفاح المقشر على سطح العجين واضغط عليها بقوة. رش فوقه القليل من السكر حسب الذوق.

يجب خبز الكَعْكَة عند درجة حرارة 180 درجة مئوية لمدة خمس وأربعين دقيقة على الأقل. اتركها تبرد لمدة نصف ساعة على الأقل قبل التقديم.

بالهناء والعافية!

# البيت

في صباح أحد الأيام كنت مستلقيًا تحت لحافي الدافئ، أحدق في شبكة التشققات الدقيقة التي بالسقف بينما كنت أناور اليوم التالي. كنت سأقابل خمسة مرضى، وخطر على بالي أنه في تلك اللحظة الدقيقة لم يكن لدي أي فكرة عن العدد الإجمالي المتبقي من المرضى الذين سوف أجري الكشف عليهم.

وفي المطبخ قمت بتسخين الماء في الغلاية. أحضرت من الدرج كيس شاي من نبتة «الراوَنْد»، كنت أستنشق رائحتها وأصب الأوراق السوداء في مصفاة. كان جاري مستيقظًا. وكان يغلي الماء أيضًا، بعد ذلك بوقت قصير سمعت أزيز غلايته المميز عبر الحائط. ثم رميت ورق الشاي، وقمت بصب الحليب في الكوب وتناولت وجبة فَطُور سريعة على طاولة المطبخ. في هذه الأثناء تساءلت كيف يتأتى لرجل أصم أن يعزف على البيانو. ربما كان يسمع في مرحلة من حياته؛ كان عليّ أن أسأله ذات يوم، إذا تجرأت وفعلت.

قالت: "صباح الخير يا سيد".

لقد كنت سعيدًا جدًّا برؤيتها. ولأول مرة في حياتي أمسكت بكتفي سكرتيرتي بطريقة تشبه إلى حد ما العناق.

هتفت قائلًا: "من الرائع أن تعودي، عدتِ، أليس

كذلك؟".

ابتسمت السيدة «سورجو» ابتسامة حيية، وكل بوصة في وجهها تبدو وكأنها شابة تتلقى الإطراء لأول مرة.

أجابت: "أظن أنني عدت، لم يعد لدي المزيد لأقوم به في المنزل، لذا فقد حان الوقت".

ثم تناولت عصاي -أصبح الجو الآن دافئًا للغاية لدرجة لا تدعو لارتداء معطف، حتى بالنسبة لي- ووضعت قبعتي على الرف.

قالت بصورة مرتجلة وهي عائدة إلى مقعدها: "لقد تجرأت وتجاوزت الحدود وأضفت مريضة جديدة إلى جدول المواعيد".

صحت فيها قائلًا: "مريض جديد؟ أوه، أحقًا فعلتِ!؟".

قالت وهي تتجه نحوي: "إنه هراء، بالتأكيد أنت لا تنوي التقاعد؟".

كانت تنظر إليَّ بحدة لدرجة أنني ترددت. لم أجد أبدًا إجابة شافية عن الأسئلة التالية: فيم سأقضي الوقت بمجرد أن أتوقف عن العمل؟ كان العد التنازلي نهاية في حد ذاته، وماذا بعده؟ لا شيء سوى المرايا الخاوية.

ومع ذلك، ومن حيث المبدأ رفضت الاعتراف بسرعة بأنها كانت على حق. بعثت لها ما كنت أتمنى أن تكون

نظرة خاطفة وقلت: "ينبغي أن تستشيريني قبل اتخاذ هذه القرارات، يا سيدة «سورجو»، أنت تعرفين ذلك جيدًا. هذا ببساطة لن يحدث".

لم يبدُ عليها أدنى شعور بالذنب.

قلت: "سوف أنظر في الأمر وسأرد عليكِ عندما أعود بعد ظهر هذا اليوم".

ويعود الفضل إلى سكرتيرتي في أنني بالكاد أستطيع رؤية الارتعاش البسيط حول فمها عندما أومأتْ وجلست على عرشها.

تم استعادة الحد الأدنى من النظام البسيط على المكتب العظيم، وبدأت السيدة «سورجو» في الكتابة على الآلة الكاتبة بسرعة مخيفة، وعيناها مثبتتان على الأوراق أمامها.

# جلسة «أجاتا» الثانية عشرة

كانت تسير أمامي، ربما على بعد 15 ياردة. ترتدي الأسود من رأسها إلى أخمص قدميها، على الرغم من أنه كان يومًا حارًّا لا ظل فيه، ظلال واهنة ليس إلا؛ ولم يكن هناك سوى شريط أصفر رفيع فقط يبرز في شعرها. كنت أظن أنها فاتنة، والآن بدا ذلك واضحًا. كانت تمشي برشاقة وخفة وبعزم، وساقا الرجل العجوز المتعبتان تناضلان من أجل مواكبة مشيتها، ولكن فجأة توقفتْ واستدارتْ في حركة دائرية. فتوقفت أنا مؤقتًا. شعرت بحرقة الشمس على ظهر قميصي المشبع بالعرق، وفكرت: لقد وقعت في الفخ إذًا. انتهى الأمر الآن. يعلم الجميع أنه لا ينبغي الخلط بين العلاج والحياة الشخصية؛ مجرد إلقاء نظرة على ماذا حدث لـ«يونج».

لقد توقفت مؤقتًا خارج المقهى في «دارا ين»، والآن تمد يدها كَيْ تدفع الباب الزجاجي وتفتحه، وتُظلل عينيها باليد الأخرى لتحميهما من الشمس. تنامى صوتها إلى مسامعي بوضوح تام، بالرغم من وجود أشخاص على الرصيف يفصلون بيننا. على الرغم من أن هناك شلالًا يقرقر في الحديقة حيث كنت أختبئ منها في آخر مرة تم تشغيله، فقد بدا كما لو أن أذنيّ قد ضبطتا بدقة على ترددها.

قالت: "حَسَنًا، يا دكتور".

أشارت برأسها نحو المقهى ثم ردت رأسها إلى الوراء قليلًا بحركة مفاجئة وقالت: "هل أنت قادم أم ماذا؟".

النهاية...